كتاب في جريدة
أصدرته منظمة اليونسكو عام 1996
عدد 103 - الأربعاء 7 آذار (مارس) 2007

محمد زفزاف

الأقوى

قصص قصيرة

رسوم غسان غائب

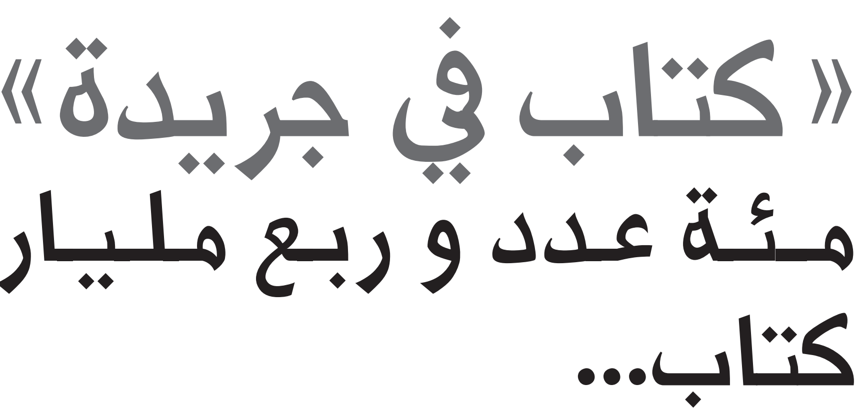




الشريك الثقافي



المؤسسة الراعية



«كتاب في جريدة»
مـئة عدد و ربـع مـلـيـار كتاب...

الشيخ محمد بن عيسى الجابر و السيد كويشيرو ماتسورا

ولد «كتاب في جريدة» كفكرة عملاقة تخرج عن المألوف أو السائد في المشاريع الثقافية التقليدية في العالم وبالأخص في الوطن العربي. ولكن التحديات التي ولدت معه كانت تَكْبُرُ وتتلاحق بموازاة مسيرة التحقق والبناء التي حملها تحت سقف منظمة اليونسكو – UNESCO التي بالتعاون مع MBI Foundation وقَّعت في 19 /سبتمبر – أيلول/ 2003 إتفاقية أولى من نوعها لدعم الثقافة والتربية في المنطقة العربية من خلال مواصلة الدعم لاستمرار «كتاب في جريدة» وانقاذه من خطر التوقف وكذلك العمل على إصلاح المناهج وتحديث النظام التعليمي في الشرق الأوسط من أجل إرساء أسس التربية الحديثة بالإضافة إلى تعريب الانترنت وكل ما يمكن القيام به لترقية وتشجيع ثقافة السلام والديمقراطية.
إنّ رؤساء تحرير كبريات الصحف اليومية العربية قد أقاموا، من خلال دعمهم لمنظمة اليونسكو في مشروعٍ «كتابٍ في جريدة»، ومشاركتهم وإصرارهمٍ علىٍ اجتياز مختلف الصعوبات والعوائق، صرحا ثقافياً مميزاً في المجتمع العربي ومنحوا الإعلام دوراً رائداً في بناء الإنسان العربي المعاصر.

إلى جانبهم وقف المثقفون والأدباء والدارسون وهم منهل الإبداع ومنتجو الثقافة، يؤسسون بهذه التجربة الحضارية الأولى من نوعها حاضرة ثقافية ترقى إلى التحديات التي تواجهها الأمة العربية على أبواب القرن الحادي والعشرين.
كل هؤلاء إلتقوا تحت قبة المنظمة العالمية للتربية والعلم والثقافة – اليونسكو – التي كان لها الفضل الأكبر في إطلاق هذه المسيرة مُستلهمةً من نجاح تجربتها الأولى في أميركا اللاتينية وإسبانيا، "Periolibros" ولكن التجربة العربية «كتاب في جريدة» التي تسلمت «الشعلة الأولمبية» للكتاب ذهبتْ أبعد من التجربة الأمِ التي توقفت بعد ست سنوات في العدد رقم 66؛ وبهذا تكون المنطقة العربية قد حققت الرقم الأكبر في عدد السنوات والإصدارات في مواجهة التدهور الحاد الذي تعانيه الحاضرة الثقافية العربية في ميدان نقل المعرفة والقراءة وإشاعة الفنون، إذ أن أرقام الإحصاءات التي تصدرها الجهات الدولية المختصة كاليونسكو UNESCO والـ UNDP وغيرها تؤشر بخطر محدق يتهدد الثقافة العربية في مواكبة الانفجار المعرفي والعلمي والفني في العالم على أعتاب هذه الألفية الثالثة.
إن «كتاب في جريدة» الذي انطلق قبل عشر سنين شهد ولادة مشروع جديد يتيح لعموم الناس الوصول إلى أهم الأعمال الأدبية والفنية لكبار الأدباء والفنانين العرب، كما يهدف في إطار جهود منظمة اليونسكو للترويجٍ للحوار بين الحضارات عبر توزيع المعرفة ونشرها على أوسع فئة من الناس في المنطقة العربية شهرياً في الصحف دون أي تكلفة مالية. إن تطور هذه المبادرة الإقليمية أمر مذهل خلال السنين العشر الماضية من نشر «كتاب في جريدة»، حيث تم توزيع مئة كتاب بمعدل مليونين ونصف مليون 2,500,000 كتاب لكل إصدار على كل الدول العربية، وبهذه الطريقة يكون قد أهدى هذا المشروع قرابة ربع مليار كتاب وصل إلى فئة من القراء لم تألف التعامل من قبل مع النتاج الثقافي والإبداعي، لذلك فإن علينا النظر إلى هذا الإنجاز على أنه الأول في المنطقة العربية من حيث الأهمية وعدد الكتب الموزعة والمشاركة الفعّالة التي ولّدتها.

إنطلاقاً من هذه المحصلة الإيجابية الكبيرة التي ترُدُّ على الحاجات الأساسية للمنطقة العربية في ميدان نشر المعرفة والإندماج الثقافي، فإننا نهنىء كل القائمين على هذه التجربة طيلة العشر سنوات المنصرمة من عمرها من رؤساء تحرير الصحف العربية الشريكة والهيئة الإستشارية والمؤسسة الراعية لدعمها اللاّ محدود والهيئة التنفيذية في كل من بيروت وباريس آملين لهذه المسيرة الاستمرار والتطور الدائمين.

السيد كويشيرو ماتسورا
مدير عام منظمة اليونسكو
UNESCO

الشيخ محمد بن عيسى الجابر
المبعوث الخاص لمدير عام منظمة اليونسكو
للتربية والتسامح والسلام والديموقراطية
رئيس مؤسسة MBI Foundation







الأقوى

قصص قصيرة

محمد زفزاف

يمنى العيد



كان لحياة محمد زفزاف (1945-2001) بالغ الأثر في ما كتبه من قصص وروايات، حتى ليمكن القول بأن ما رواه وشكَّلَ عالمَه المتخيّل السرديّ هو تنويعٌ على سيرةٍ عاشها وعاناها في واقعه الاجتماعي.

ولد محمد زفزاف قرب مدينة وزّان في المغرب العربي، حيث توفي والده أواخر الأربعينات، فهاجرت والدته إلى القنيطرة التي كانت وكما يقول (في مقابلة له مع أحمد فرحات) مسرحاً لبعض مؤلفاته مثل: «قبور في الماء» (1978) و«أرصفة وجدران» (1974) و«محاولة عيش» (1985).

دخل، وحسب تعبيره، المدرسةَ الاستعمارية التي لم يستطع أن يكمل دراسته فيها، فانتقل إلى مدرسةٍ حرّة أسسها الوطنيون، غير أنه عانى في هذه المدرسة من وجوده مع أبناء الأعيان، هو الفقير الذي كان يسكن مع أمه وأخوته في مدن الصفيح، وفي حيٍّ كان كلٌّ رفاقه فيه يموتون قتلاً، أو يذهبون إلى السجن، أو يصبحون جنوداً من الدرجة الثانية.

هكذا، وحتى يُغطِّي فقرَه ويتغلَّب على معاناته الأليمة، اجتهد ليصبح الأوَّل في صفه، وينتهي به الأمر إلى التخرّج من المدرسة العليا للأساتذة في الرباط.

بدافع الفقر والحاجة عمل محمد زفزاف، وهو ما زال صبيّاً صغيراً، متدرِّباً عند خياط شعبي، ثم بائعاً للصحف، ليصبح في ما بعد صحافيّاً، ثم ليمتهن التدريس بالتعليم الثانوي بالدار البيضاء.

وبدافع أقوى منه يجد محمد زفزاف، الصحافي، نفسَه، ذات يوم، يكتب. قوةُ الكتابة كانت حاجةً كامنةً فيه ليعبّر عما يرى ويعيش ويعاني. كانت الكتابة معادلاً لحياته، لمساره وعيشه، ولذاته وهي تعاين واقعَه وزمنه ووجوده بهما.

بدأ زفزاف في كتابة الشعر، لكنه سرعان ما انتقل إلى كتابة القصة التي وجد فيها «وسيلة» مهمة وأكثر رحابةً للتعبير، فنشر أول قصة له تحت عنوان «ثلاثة أسابيع» في مجلة الأطلسي المغربيّة عام 1962. ثم توالت قصصه ورواياته فأصدر: عام 1970 «حوار في ليل متأخر» (قصص)، وعام 1972 «المرأة والوردة» (رواية)، وعام 1974 «أرصفة وجدران» (رواية)، وعام 1977 «بيوت واطئة» (قصص)، وعام 1978 «قبور في الماء» (رواية)، وعام 1978 «الأقوى» (قصص)، وعام 1979 «الأفعى والبحر» (رواية)، وعام 1980 «الشجرة المقدسة» (قصص)، وعام 1982 «غجر في الغابة» (قصص)، وعام 1984 «بيضة الديك» (رواية)، وعام 1985 «محاولة عيش» (رواية)، وعام 1988 «ملك الجن» (قصص)، وعام 1988 «ملاك أبيض» (قصص)، وعام 1989 «الثعلب الذي يظهر ويختفي» (رواية).

يتميز أدب محمد زفزاف السردي، القصصي والروائي، بميزتيْن رئيسيتيْن:

– الواقعية، لكن التي تسعى إلى التفرّد باعتبار مرجعية المرويّ الخاصة، أي الواقع الاجتماعي الحي، المعيش، وما يستدعيه تشكلُ عوالمه وفضاءاته المتخيّلة من لغة وتعبيرات متنوعة تنوّع شخصيات هذه العوالم، واختلاف أزمنتها وأمكنة عيشها.

على أن المقصود، تحديداً، بهذه الواقعية المتفردة، هو بالنسبة لزفزاف، أن يعبِّر أدبُ المغاربة عن واقع المغرب، فلا يحاكي أدبَ الشرق الذي كان تاريخيّاً، الأسبق، إلى كتابة القصة والرواية. ثم أن يكون نتاج الأديب المغربي، المعبّر عن الواقع المغربي، نتاجاً إبداعيّاً يميّزه كفردٍ ولا يحاكي نتاج أديب آخر.

ومن يقرأ أدب محمد زفزاف يلاحظ أن معظم قصصه ورواياته، إن لمٍ نقل كلها، استمدت مرويَّها من الواقع المغربي، وأن هذا المرويّ انبنى وتشكَّل وفق رؤية زفزاف نفسه الباحثة عن أسلوب يميّزها ولغة تختزن حرارة مشاعره اتجاه الشخصيّات القادم بها من بؤس ما تعانيه إلى ألق الأدب وحياتها به.

حكت قصص زفزاف ورواياته عن الإنسان المغربي المنتميَ إلى الفئات الشعبيّة الفقيرة والمهمشة، الباحث دون جدوى عن عمل يؤمّن له ولعائلته لقمة العيش. كما حكت عن المثقف الذي لا تجديه قراءة الكتب نفعاً، ويعاني مشاعرَ الغربة والوحدة: غربة الثقافة ووحدة الوجود. كذلك حكت عن علاقة المغربي بالآخر الذي استعمر بلاده وزرع فيه مشاعر الدونيّة، وبالآخر السيد المحلي المتعالي أمام المغربي والمنحني أمام الأجنبي.

تمثّل شخصيات قصص زفزاف ورواياته، في معظمها، الأشقياء «الذين يتناسلون في العالم بلا هوادة»، كما يقول. لكن هؤلاء طيّبون، بسطاء، وسذّج. إنهم رواد المقاهي الذين يجدون في الخمرة والجنس، والحشيشة.. ما يُنسيهم حرمانهم وعذاباتهم يأتون إلى المدن هرباً من بؤس الريف وما يعانيه أهله من جفاف، في ما تذهب مياه الوطن إلى مسابح الأثرياء. يهاجرون مكرهين ويتعرضون للذل بحثاً عن الرزق.

– أما الميزة الثانية، فهي تتمثّل في المنظور النقدي الذي على خلفيته روى زفزاف قصصه ورواياته ونسج عوالمها. نقدُ زفزاف يُضمر تطلعاً إلى عدالة اجتماعية، وإلى هدم القيود والأسوار التي تحول دون تطوّر الوعي الجمعي. قيود العادات والتقاليد البالية، وتوسل السحر والشعوذة بدل العلم والمعرفة.

لا ينطوي نقد زفزاف في أدبه على عداء للآخر، بل هو قائم في العلاقة الخطأ – كما يقول. إنه عداء للتمييز العنصري ودعوة إلى إعادة الثقة بالهوية الوطنية.

مشبعٌ نقد زفزاف بروح حارّة حرارة لغته، وأسلوبه الشفاف النابض بالحياة، والمضمّخ بمشاعر إنسانية تزاوج بين المادي والروحي، بين عناصر الحياة اليوميّة البسيطة وحركة الكون وتمثلاتها في شدو الريح والعصافير ومسار النجوم والكواكب.. بين أضواء المفتوح وعتمة المغلق بما هما – الأضواء والعتمة – داخل الفضاء كما داخل الروح.

يبدو محمد زفزاف في ما كتب من قصص وروايات، واحداً من معاصريه الكتاب البارزين الذين ساهموا، إبداعيّاً، في خلق وعي جمعي بواقع مرحلتهم ومهدوا بذلك للتغيير.

ولعلَّ فاعليّةَ هذه الكتابة الأدبيّة، في واقعها، تعود، في وجه هامّ منها، إلى بساطة اللغة غير المخلّة بجماليتها، كما إلى واقعيتها المتفردة، وقدرتها على مسرحة عوالم المتخيّل والاهتمام بحواريّةِ الأصوات، مما أكسبها طابع الحقيقي، وخوّلها، في الآن نفسه، دوامَ القراءة لها وتذوقها الممتع.

لقد كان نتاجُ محمد زفزاف علامةً أدبيّة بارزة على قساوة الحياة التي عاشها، كما كان نموذجاً لما تميّز به أدبُ السبعينات والثمانينات في المغرب العربي من خصائص سردية وأسلوبيّة ساهمت في تطوير فن القص والسرد الروائي العربيّيْن.

بيروت 10/12/2006

ملاحظة:

لقد اعتمدت في ما جاء في هذا التقديم من معلومات تخص حياة محمد زفزاف على:

– موسوعة «أعلام الأدب العربي المعاصر» العدد 62/1. دار النشر فرانتس شتاينر. المجلد الأول. المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت.

– أحمد فرحات: أصوات ثقافية من المغرب العربي. الدار العالمية. بيروت ج 1 – 1984 ص 157 – 176 (مقابلة).

غسان غائب – العراق 1964 www.4ghassan.com

ينطلق غسان غائب في بناء الحد التجريدي لأعماله من ما هو مشاهد في العالم الخارجي، فتجريداته لا تستبعد المظهر الخارجي كنقطة انطلاق لتتحول بعدها وضمن اقتراحاته الفنية وحساسيته إلى نموذج بنائي جمالي.

تخرج من أكاديمية الفنون الجميلة – بغداد

أقام عدة معارض أهمها :

فردية : 2001 غاليري أورفلي – عمان الأردن ؛ 2005 الوشم، غاليري دار الأندى – عمان الأردن.

جماعية : 1999 معرض لثلاث فنانين عراقيين، غاليري أجيال – بيروت لبنان ؛ 2003 معرض قبل.. بعد.. الآن..، دولكس غاليري – لندن بريطانيا ؛ 3002 فنانون معاصرون من العراق، غاليري الفن الأخضر – دبي الإمارات العربية المتحدة.

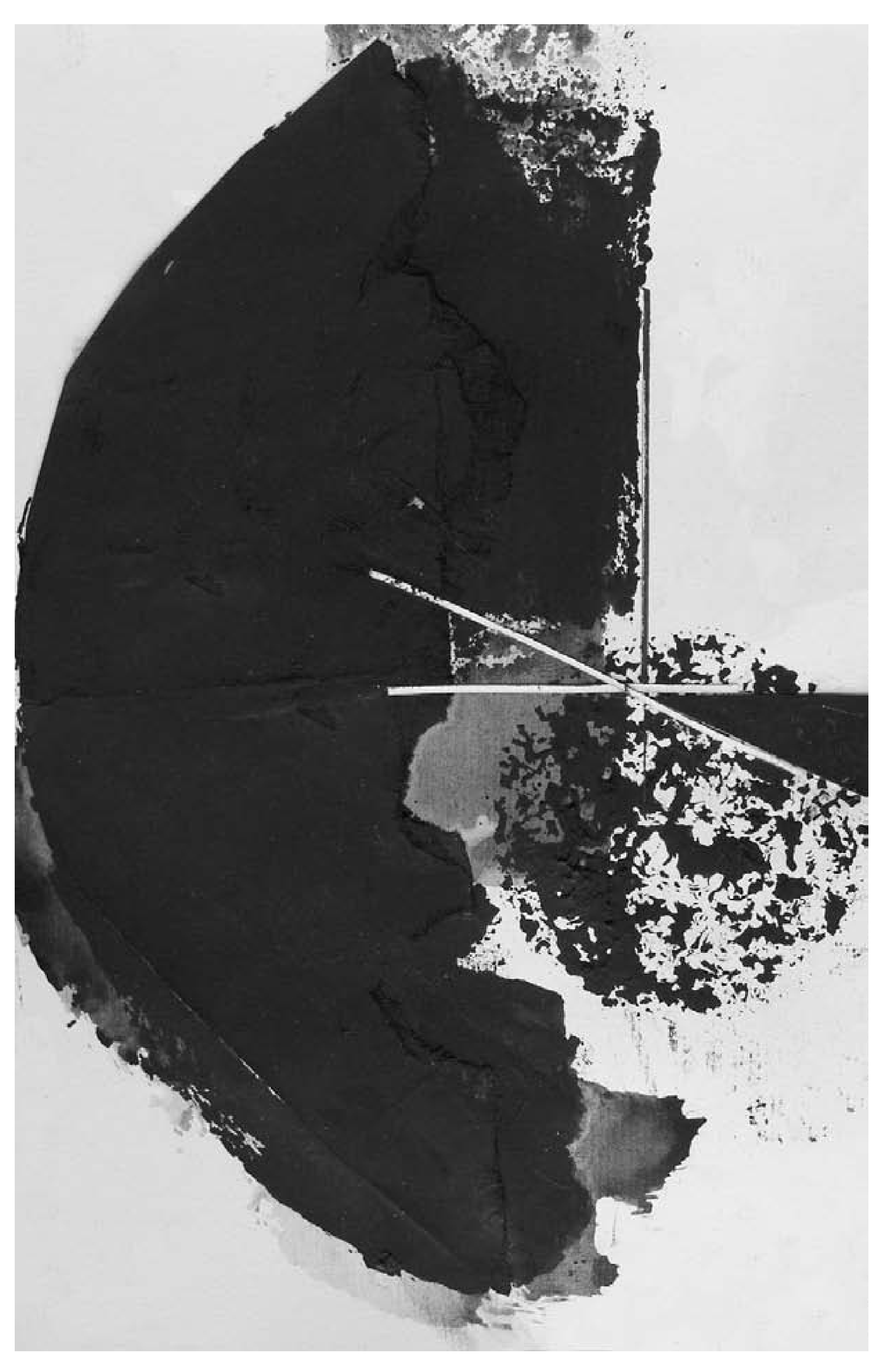
كتاب في جريدة
عدد رقم 103
(7 آذار 2007)

الروشة – شارع شوران – سنتر دلفن –
الطابق السادس
تلفون / فاكس 835 868 (1-961+)
تلفون 219 330 (3-961+)
kitabfj@cyberia.net.lb
kitabfijarida@hotmail.com



الأقوى: قصص قصيرة

محمد زفزاف



الجفاف

وقفت فاضمة تامصلوحت، تحت ظل الجدار، وضعت كفها عند جبهتها وأخذت تنظر إلى الطريق الترابي الذي يتعرج في السهل الأجرد. ليس هناك كلأ ولا عشب. بعض الحيوانات العجاف، تبدو خيالاتها ملتصقة بجذوع الأشجار التي تمد أعوادها في الفضاء تحت القيظ. أخذ أحد أبنائها يناوش أخاه الذي اختطف منه رزمة من الخرق التي صنعتها لهم فاضمة تامصلوحت، عندما طالبوها بشراء كرة. يتعرج الطريق الترابي، ليصبح دقيقاً ثم معدماً في النهاية. قالت لها رقوش أمس عندما جلبت لها سطل ماء.

– حاولي أن تحافظي عليه. اصنعي من هذا الماء طعامك وطعام الأطفال، لا داعي لكي يغسلوا، إن الأطفال بإمكانهم أن يشربوا هذا السطل في جرعة واحدة. لو لم تكن رقوش لماتت فاضمة تامصلوحت وأبناؤها. زوج رقوش يستطيع أن يدبر كل أسبوع برميلين من الماء، يجلبهما على بغل من بئر تبعد حوالي خمسة كيلومترات عن البيت. ولو لم تكن رقوش ابنة عمتها لما أعطتها ولو جرعة ماء. ليس لها زوج يستطيع أن يفعل مثلما يفعل زوج رقوش. على كل حال، فهو لا يعلم بأن الجفاف قد ضرب المنطقة كلها، وهو يرسل لها النقود مع بعض المسافرين القادمين من المدينة، والمدينة كلها خير وبركة. منذ أكثر من عشر سنوات وهو يشتغل بائعاً لفستق العبيد وبذر القرع في المقاهي. لم تر المدينة في حياتها، ولم تر مقهى أو باراً. يحكي لها عن ذلك مرتين أو ثلاث مرات في السنة عندما يعود لينام معها حتى تنجب المزيد من الأولاد. لكنها تظل لا تفهم شيئاً عن ذلك العالم. والبيت الذي بناه من الطوب يشبه بيوت المدينة كما قال لها. بل إنه أوسع بكثير من بيوت تشبه الأقفاص يتكوم فيها عشرات الأطفال. ويقضون حاجتهم في مكان واحد يظلون يتزاحمون على بابه، كل ينتظر دوره. أما هنا فيمكن للإنسان أن يقضي حاجته في هذا الخلاء الواسع الفسيح. كانت الأرض أمام عينيها جدبة وقاحلة ومتحفرة. قبل هذه السنة كانت خضراء وكانت الخراف والحيوانات الأخرى رغم قلة عددها سماناً. أما الآن، وعندما كثر عددها فإن الأرض استحالت إلى شبه لوح صخري. أخذت لون الطريق الترابي. قال أحد الأطفال:

– فاضمة. متى سيعود أبي بالماء؟ أكاد أموت من العطش.

– أسكت. إنك كذاب. وتريد فقط أن تدلق قاع السطل على عنقك. سيعود أبوك بالماء. لقد ذهب إلى السوق ليدبر أمر برميل أو برميلين لكم يا عجل.

عندما وصل أمس فوجئ. لم يكن يعرف أن الله يستطيع أن يحجب الأمطار مثلما فعل هذه السنة. حكى له المسافرون عن الجفاف لكنه لم يتصوره بهذا الشكل. قيل له إن بعض شياهه تموت فاعتقد أن ذلك شيء عادي، لأن كل الشياه تموت، وفي ظروف مثل تلك. لكن هذه المرة ذهبت أغلب شياهه، وذبلت كل الشجيرات التي اشتراها من أرباح بيع الفستق وبذر القرع. عندما حكت له فاضمة عن كل ما يجري في المنطقة أصيب بنوع من الإغماء. ولم تعد عنده نفس ليشرب كأس الشاي:

– اشرب. شايك سيبرد.

– الله يعطيني البرد في الركبتين.

– ربي ينجيك لرأسك ولأولادك. كل شر تدعو به لنفسك أتمنى أن ينزل علي، إنك أبو أولادي.

– ولكن كل الشياه ماتت.

– حتى شياه الآخرين ماتت.

– هم امتلكوها لا أدري كيف. أما أنا فقد تهرأت قدماي من المشي، من مقهى لمقهى، ومن الركض هرباً من القوات المساعدة التي كثيراً ما نقلتني إلى المقاطعة تحت الرفس والركل.

– الله أراد ذلك.

صرخ أحد الأطفال:

– متى يعود أبي يا فاضمة.

ركلته بقدمها الحافية في بطنه. توجع، ثم تحامل على نفسه، وفرّ بعيداً، بينما كان إخوته الآخرون يضحكون عند الزرب الذي انحسر ظله.

لقد حلف الزوج بأن يعود ببرميلين أو ثلاثة مهما كان ثمنها، وبأية طريقة، مثلما يفعل أخي زوج رقوش. تعبت فاضمة تامصلوحت من الوقوف. كانت هناك قطعة حجر كبيرة مغروسة في الأرض، ذهبت وجلست عليها. ظلت تراقب الطريق الترابي، أشباح الحيوانات لا تكاد تتحرك، هزيلة وضعيفة. تنتظر اللحظة التي ستموت فيها. ولا شك أن زوجها سيذبحها كلها ليحاول بيع لحمها بأرخص ثمن. لكن الناس عافوا أكل اللحوم وأصيبوا بحالات إسهال وقيء. ما عاد أحد يرغب في أكل اللحم. ارتفع ثمن الخضر، وحتى الطماطم أصبح لها شأن. قالت للأطفال:

– لو اقترب أحدكم من جرعة الماء تلك لعصرت بطنه حتى يبولها في سرواله. لم تكن لهم سراويل. كانت لهم قشاشيب واسعة، مفتوحة عند الكتف الأيسر. قشاشيب متسخة، وبعض أطرافها ممزقة. لم يهتموا بما قالت، ولكنهم انشغلوا بأشياء تخصهم. هي أيضاً، انشغلت بما يخصها. قالت للزوج:

– كان من الأفضل أن تذهب مع أخي إلى المكان الذي يجلب منه الماء، لو استعرت بغلاً من عند آيت أو حسو وفعلت مثلما يفعل أخي.

– هل تعتقدين أن آيت أو حسو يستطيعان أن يعيراني البغل؟

– ولم لا؟ أليسوا أخوالك؟

– كأنك نسيت ما حصل بعد وفاة أمي.

– وما الذي حصل؟ تلك أشياء عادية تقع بين جميع الناس.

– أنا لم أعتبرها في يوم ما عادية. أحمد الله لأنهم كانوا السبب في هجرتي إلى الدار البيضاء. ولولا هذا الجفاف لكنت قد اشتريت كل أراضيهم وجعلتهم بغالاً فيها.

– أنا قلت لك أن تستعير منهم بغلاً. لا أن تشتري بغالاً.

– لن أفعل، ولن أتحدث إلى أي كان منهم لو التقيتهم غداً في السوق. ليسوا أخوالي ولا علاقة لي بهم.

تذكرت الانقباض على وجهه. وتغير صوته ليلة أمس، وخشيت أن يصاب بالصرع. لأن تلك حالة تلازمه أحياناً فلا يفيق منها إلاّ بعد مرور وقت طويل. في نهاية الأمر نام بجانبها دون حتى أن يلتفت إليها. قال لها: «أيقظيني غداً باكرا». لكنه استيقظ قبلها، وأصر على أن يتدبر الماء بأية طريقة من السوق. تشعر الآن بصلابة قطعة الحجر تحتها. لم تأبه للآلام التي تسببها لها. إذا جلب برميلاً أو برميلين، فسيكون ذلك من أجل إنقاذ حياة أولاده، أما هذه الأرض، وتلك الأشجار، فإنها لا محالة ميتة. وأما تلك البهائم فقد مات أغلبها.

وعندما وقفت وتراجعت إلى الخلف رأت في الأفق شبح شاحنة داكنة اللون. ظلت تراقبها وهي تتدحرج على الطريق الترابي. عندما اقتربت الشاحنة، وقف الأطفال وركضوا في الطريق تجاهها. كانوا ينتظرون وصولها وهم يقفزون. لم يعتادوا أن يروا شاحنة إلاّ في النادر. ولكنهم تعودوا على رؤية عربات تجرها الدواب. وعندما أدركتهم الشاحنة أخلوا لها الطريق. وأخذوا يلوحون ويركضون وراءها وهي تسير نحو بيتهم، كان فيها جنديان وأبوهم معهما. توقفت الشاحنة فاختفت فاضمة بسرعة، لأنه لا يمكن لأي رجل أن يرى وجهها سوى زوجها. ترجلوا ثم أنزلوا ثلاثة براميل من الشاحنة العسكرية في الخلاء، صعد الجنديان إلى الشاحنة بنفس السرعة التي نزلوا بها، ثم دارت الشاحنة على نفسها وسارت في الخط الترابي، بين الأشجار الميتة الجافة. لم تتحرك الدواب لسماعها صوت المحرك، لأنها كانت ضعيفة واهنة وخائرة. عادت فاضمة إلى الظهور:

– من أين حصلت على هذا الماء؟

– لقد دفعت ثمنه ثلاثمائة درهم. إن أمسكان ولد أوتغريت، هو الذي أرشدني إلى هذين الجنديين، إنهما يسرقان الماء من الثكنة ويبيعانه في السوق السوداء.

– ومن أين يحصل العسكر على الماء؟

– إنهم عسكر. يحصلون على كل شيء. الدولة توفر لهم كل شيء.

– إنهم محظوظون.

– لقد واعداني بأنني إذا أغلقت فمي، فإنهما يستطيعان أن يوفرا لي ما أشاء من الماء حتى للدواب، وبثمن رخيص جداً، لكني لن سأقول ذلك؟

– لكن يمكن لأمسكان ولد أوتغريت أن يتحدث.

– ولماذا يتحدث؟ هو نفسه يشتري منهما الماء.

– أنا لا أثق في البشر كثيراً. هل ما يزال يتزوج ويطلق باستمرار؟

– ولماذا تسألين عنه؟ هل تريدين أن تتزوجيه؟ دحرجي معي هذه البراميل وأغلقي فمك.

أخذت تدحرج البرميل الأول. تبعها الأطفال وأخذوا يساعدونها وهم يدفعون البرميل الذي يسمع صوت الماء داخله. قالت:

– اذهبوا لتلعبوا. ها الماء! إذا اقترب أحدكم من البراميل فإني أستطيع أن أخنقه.

كان الزوج يمسح عرقاً عن جبينه وهو جالس على التراب. ينظر إلى الخلاء وهو متكئ بظهره على الزرب. وعندما دحرجت فاضمة البراميل إلى الظل قال لها أن تهيئ له براد شاي. ذهبت لتفعل ذلك. يرفع عينيه إلى السماء. صافية تماماً. في الدار البيضاء أيضاً كانت السماء صافية زرقاء. لكنهم هناك يملكون كل شيء، حتى الماء في المسابح. رآهم يسبحون ويشربون الخمر، ويأكلون «السندويشات»، ويعانق الرجال النساء ويضحكون. لا يدري من أين يأتون بالفلوس. وقالت فاضمة:

– هل تدخل أم تفضل أن تشرب الشاي هنا؟

– ضعي البراد واذهبي لتهتمي بنفسك.

وضعت الصينية أمامه ثم انسحبت. صوت الأطفال يأتيه من بعيد ومن مكان ما. أفرغ الشاي في الكأس. كان ساخناً جداً. التحق به أحد الأطفال وطلب منه جرعة شاي. قال له اذهب وهات كأساً فارغة. لكن الطفل خرج يركض من باب الغرفة وهو يعوي، أطلت فاضمة من الباب:

– ألا تترك أباك يشرب كأسه في راحة؟!

رفع رأسه إليه:

أعطيه الكأس.

اختفت ثم خرجت بالكأس وقالت بالبربرية:

– هاك! أتوست اشتشي (تشرب السم).

رأى في الأفق سيارة قادمة. كانت تظهر مثل نقطة سوداء. وقف في مكانه وأخذ يتطاول بعنقه. كان بصره ضعيفاً. ومع ذلك فقد تأكد أنها ليست دابة ولكنها سيارة حقيقية. هل يكون الجنديان قد عادا ببرميل ماء آخر. صرخ في الزوجة:

– فاضمة! الجنديان عادا ببرميل ماء آخر.

خرجت تركض حافية. ذهبت ووقفت فوق قطعة الحجر المغروسة في الأرض. وضعت كفها عند جبينها. قالت:

– إنها لا تشبه سيارتهما. إنك أعشى ولا ترى شيئاً.

عادت واختفت داخل البيت. مشى هو نحو الطريق الترابي. تأكد الآن من أنها ليست شاحنتهما فعلاً. كانت سيارة جيب صغيرة الحجم. ظهر الأطفال وتفرقوا في الخلاء يتقافزون. صرخ أحدهم:

– إنه الماء. الماء.

قال الأب:

– اذهب بالقرب من أمك.

تراجع إلى الخلف عندما تبين أنها سيارة رجال الدرك، فرّ الأطفال وتبعوا أباهم. دخلوا إلى البيت وهم يراقبونه من الباب وهو يتراجع خائفاً وقد تغير لون وجهه. فرقع الباب ونزل دركيان. أحدهما ذهب ليبول عند الزرب، في حين التحق الآخر بالزوج. ركله عند بطنه:

– يا شلح يا ابن الكلب! تسرق ماء الدولة من الثكنة العسكرية، أين البراميل؟

أخذ الدركي الآخر يزرر بنطلونه. بدا كما لو أنه لا يهتم لما يحدث أمامه.

سقط الزوج على الأرض. أمسكه الدركي من ثيابه وأوقفه:

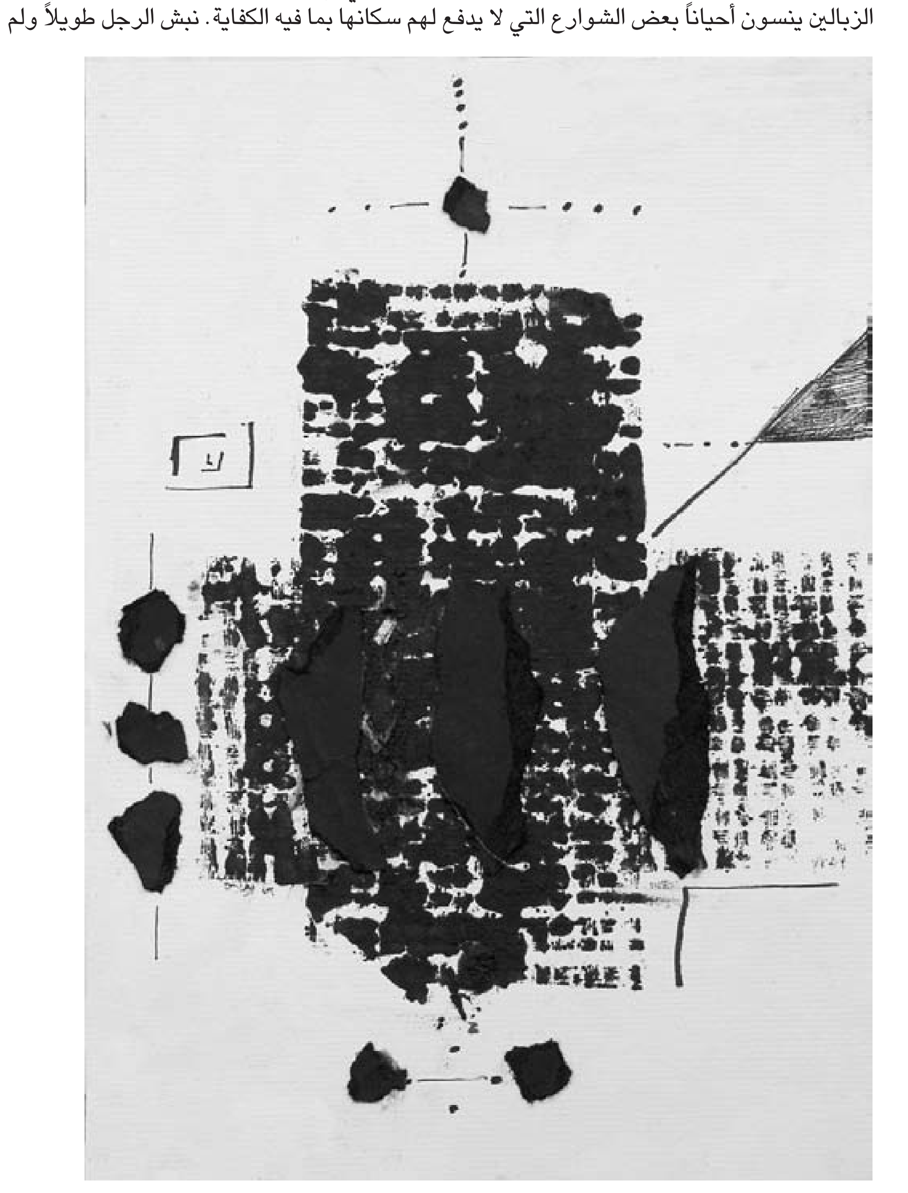
– قل لي أين الماء؟

أنطونيو

كان يجلس عند عتبة النادي المهجور. الشمس حارة متجهة نحو الغرب. ساقاه مفرجتان، وقد ارتفع السروال إلى حدود الركبتين. فردتا الصندل باهتتان. كان يرفع رأسه أحياناً إلى أعلى شمالاً، حيث ما تزال معلقة صورة امرأة ترقص الفلامنكو. لكنه عندما كان ينظر إلى الصورة المرسومة على لوح قصدير يكاد يسقط، لم يكن في نظراته أدنى اهتمام بما ينظر إليه. رأيت طفلين يلعبان بالقرب منه. في الواقع، لم يكونا يلعبان، بل كانا يتشاجران.. غلبت البنت الصبي، لأنها حاولت، وقد نجحت في ذلك، إدخال رأس الصبي في بالوعة الشارع. أخذ الصبي يصرخ وينادي على أمه فتركته وعادت لتجلس عند عتبة العمارة المقابلة.

أنطونيو ينظر إلى كل ذلك دون أن يبدو أي انفعال على وجهه. الشارع خالٍ. تعبر من وقت لآخر سيارة أو دراجة نارية. البنت والصبي يعودان إلى الالتصاق ببعضهما، تندّ عنهما صرخات فيفترقان. ينظر إليهما أنطونيو بدون انفعال دائماً في كل فترة يعودان فيها للالتصاق ببعضهما. تألمت أنا لاضطهاد البنت للصبي لكنه حتماً سينتقم منها عندما يكبران، بالطريقة التي يمكن للذكر أن ينتقم بها من المرأة. لكنه في النهاية ربما انهزم. ولا شك أن أنطونيو منهزم حتماً لسنوات خلت. وهذا مجرد تخمين. وما دامت الأمور فوق طاقة البشر، فيبقى من حقهم أن يخمنوا انتصاراتهم أو هزائمهم. هذه المرة أيضاً نجحت البنت في إدخال رأس الصبي في البالوعة. وسمعت صوته مختنقاً يشتم ويستنجد، كانت ساقاه الصغيرتان تفركلان في الهواء ومع ذلك لم ترحمه البنت، بل استمرت في دفع جسده الضئيل داخل البالوعة. خشيت أن تقتله، وحاولت أن أصرخ بها، لكني رأيتها تسقط على عجيزتها فوق الاسفلت، وقد تعرى فخذاها النحيلان كنبات البسباس. لقد ركلها الصبي وأخرج نصف جسده من البالوعة. كان أنطونيو دائماً ينظر بلا مبالاة، لكنه كان يتحدث إلى نفسه. الشمس في مواجهته، لا يستطيع أن يرفع عينيه جهة الغرب. فالأشعة مائلة ترشق جسده النحيف الذي لا شك أنه غارق في العرق الآن. ظهرت لي زغبات ساقيه الشقراء تلمع. أخذ يحكها بأظافره المتسخة السوداء الطويلة. يفعل ذلك أيضاً بتثاقل ولا مبالاة، ثم مد يده اليمنى إلى قبعته وأزاحها عن رأسه، وضعها مقلوبة بالقرب منه على العتبة. ولو وضعها أمام قدميه بذلك الشكل، لما ألقى فيها أحد حتى بصقة، لأن الشارع خال. لمعت صلعته تحت أشعة الشمس، وحرك الهواء الجاف تلك الشعيرات الجانبية عند رأسه. ثم أخذ يمرر كفه على صلعته.

رأيت رجلاً يحمل كيساً وهو ينبش في قمامات الشارع التي لم تدركها سيارة نقل الأزبال اليوم. لأن الزبالين ينسون أحياناً بعض الشوارع التي لا يدفع لهم سكانها بما فيه الكفاية. نبش الرجل طويلاً ولم



صيف مستمر

يعثر سوى على نصف دمية دسّه في الكيس. اقترب من أنطونيو:
– انهض من هنا.
نظر إليه ببطء وبتثاقل. كرر الرجل النباش ذلك الأمر. غير أن أنطونيو اكتفى بأن حرك رأسه نفياً. استمر الرجل:
– انهض من هنا أيها الإسباني الفقير. سوف تضربك الشمس وسوف تموت.
قال أنطونيو:
– لا، أتركني، لن أموت. أعرف أنني لن أموت بضربة شمس.
– انهض.
– لا.
– قلت لك إنك سوف تموت.
– لا.
حرك الرجل رأسه. ترك أنطونيو وذهب للقمامة الأخرى ينبشها. أخذ أنطونيو يمسح ما بين أصابع قدميه. تصورت تلك الرائحة التي يفرزها ما بين أصابع القدمين فقلت: «إخ. إنه معفون». مسح أصابع يديه في بنطلونه الباهت الذي كان يشد إلى جسده بحزام لم يخترق عرى السروال. البنت والصبي يتقاربان من بعضهما. كانا يتحدثان. هدنة مؤقتة على الأقل.
أطلت أم البنت من النافذة ولوحت بذراعيها البضتين البيضاوين. قالت:
– سمية! ماذا تفعلين في ذلك الحر؟ ألا تريدين أن تفارقي ذلك العزري وتلازمي بيتكم؟ عندما يعود أبوك من العمل سوف أقول له كل شيء. لقد أصبحت عزباء ولم يبق سوى أن نبحث لك عن رجل يشد لجامك.
اختفت الأم. ولم تهتم البنت كثيراً بما قالته أمها، في حين نقل أنطونيو كفه إلى صلعته، كما لو كان يتلمس تأثير الشمس على جلدة رأسه. رفع القبعة عن العتبة وكوّمها فوق رأسه. ينظر إلى الطوار تحت قدميه الذي فقدت بعض أحجاره. بعيداً قليلاً عنه حفرة صغيرة، فيها كيس بلاستيك مربوط إلى شريط وقطعة حجر صغيرة.
أطلت أم الصبي. رأسها مشدود بمنديل، مدت في الفضاء جلدة خروف وأخذت تنفضها دون أن تعير اهتماماً لمن قد يكون تحت النافذة. رأت ابنها ملتصقاً بالبنت. صرخت فيه:
– يا ابن الكلبة! أما آن لك أن تفترق عن تلك الأفعى. يا ويلي يا ويلي! لن تفترق عنها حتى تقع فضيحة في الدرب. الناس يلدون بني آدم وأنا ولدت جنياً.
استمرت في نفض جلدة الخروف، ثم اختفت وراء النافذة. الشارع خال دائماً. ظل الطفلان يقتربان من بعضهما ويفترقان. ومن الأكيد أن البنت كانت تحاول أن تجر الصبي بغريزتها كأنثى إلى البالوعة لكي تغلق عليه شبّاكها الحديدي وتستريح. هذا مجرد تخمين. وما دامت الأمور فوق طاقة البشر، فيبقى من حقهم أن يخمنوا مدى قدرتهم على تحمل المكوث داخل البالوعة.. إلاّ أن الصبي، يبدو أنه قد تسلح هذه المرة لكي لا يدخلها مرة أخرى، ولكي لا يئن مرة أخرى، ولكي لا يبقى نصفه الأسفل في الشارع مرة أخرى، ولكي لا تسقط البنت على عجيزتها في الطريق فيظهر ساقاها عاريتين كنبات البسباس، ولكي لا تصرخ أمها فتنعته بالعزري ولكي لا تتهم أمه البنت بأنها أفعى. مجرد تخمين طبعاً ودائماً، هذا مجرد تخمين.
أحياناً، يرفع أنطونيو عينيه إلى النافذة المقابلة. ينقل نظراته من صورة راقصة الفلامنكو إلى فردتي الصندل، إلى الطوار، إلى النافذة. وراء النافذة الأخت الصغرى لسمية ربما. لقد جلب لها ذات مرة سلحفاة صغيرة الحجم. تصورت أنه لم ينجب أبداً. لا يهتم بأحد من الأطفال إلاّ بأخت سمية. هي أيضاً تحبه. لكن أخت سمية كانت غائبة، ربما ذهبت إلى شاطئ سيدي عبدالرحمان مع أختها الكبرى. يرفع أنطونيو عينيه تجاه النافذة، فتردها أشعة الشمس حاسرة، يضع كفه المعروقة على جبهته مثل مقدمة قبعة لتستقيم له الرؤية، جلبت البنت قصبة مدببة، على هيكلها عقد غير متساوية الأبعاد، كانت تقول شيئاً للصبي وأنا أنظر إليهما. وافق الصبي أو لم يوافق. وعندما سارت تبعها. ومعنى ذلك أنه وافق في النهاية. اقتربت ببطء من أنطونيو وانبطحت على بطنها فوق الطوار، أخذت تنكش الأرض التي فقدت أحجارها برأس القصبة، تنكش بهدوء كما لو كانت تبحث عن دودة. تريد استخراجها من التراب، الصبي واقف بالقرب منها على بعد أمتار، ينظر إليها تحت أشعة الشمس المحرقة، اقترب منها أكثر وجلس على الأرض. أطلت أمه وصرخت فيه: «تجلس على الأرض يا ابن الكلبة. يدا أمك تهرأتا من كثرة الغسيل». ثم اختفى رأسها. كان أنطونيو يلتفت أحياناً إلى البنت وهي تفعل ما تفعل. أخذت تزحف على بطنها حتى اقتربت منه. بدأت تناوش أصابع قدميه بالقصبة. سحب قدميه كما لو لدغته ذبابة. ضحكت البنت وعاودت الكرة. الصبي ينظر إليها بأسف، غير أنه في الأخير أخذ يشجعها على ذلك. وأنطونيو يستمر في سحب قدميه، في تحريكهما بوهن شديد، وباشمئزاز أيضاً. قال لها بصوت فاتر:
– اذهبي.
سال لعابه عندما فتح فمه، لمع اللعاب تحت أشعة الشمس فوق شعيرات جانبي الفم. خافت البنت، فوقفت بسرعة، ابتعدت عنه، قالت البنت:
– هل تلك السلحفاة ذكر أم أنثى؟
لم يكن يحاول أن يرد عليها. نقل أظافر يده إلى ساقيه وأخذ يحك... السروال منحسر حتى الركبتين.
– إنها أنثى. يجب أن تجلب لأختي ذكراً، وأن تجلب أيضاً معك سلة من الخس.
ينظر دائماً جهة النافذة، ثم في الأعالي، محاولاً تجنب الأشعة. انبطحت البنت مرة أخرى أمامه على الأرض، فعل الصبي مثلها، عادت إلى مضايقته بالقصبة. قالت البنت:
– إني أكلمك وأنت لا تجيب.
قال الصبي:
– لا تتعبي نفسك. لن يتكلم قط.
– سأحاول أن أكلمه، إنه ليس زيزوناً.
أطلت أمها من النافذة:
– ماذا تفعلين لذلك الرجل المسكين يا بنت القحبة؟ وسخي ثيابك. لن تأكلي لقمة هذا اليوم. والله لن تأكليها. انهض من هناك يا موسيو أنطونيو. سوف تفقأ عينيك تلك الجنية بقصبتها.
هربت البنت والصبي والتجأ إلى باب إحدى العمارات، الشارع خال دائماً، اختفت الأم، وظهرت دورية لرجال القوات المساعدة في رأس الشارع تزحف ببطء، قالت البنت عندما رأتها:
– يجب أن نصعد إلى السطح حتى لا يأخذونا معهم إلى المقاطعة.
اختفيا وأغلقا باب العمارة وراءهما، وعندما اقتربت الدورية، قفز أحد الرجال من الباب الجانبي للسيارة. يبدو أنه ليس من سكان المدن، لا شك أن أحد الضباط من عائلته توسط له فألحقه بالقوات المساعدة. أمسك بأنطونيو من ثيابه وأوقفه بعنف. كان بعض المتسولين والمشردين يطلون في حذر من باب السيارة. أطل الضابط برأسه:
– يا بغل! من قال لك انزل. تريد أن تلقي القبض على أوروبي، هل أنت مجنون؟ تريد أن تخلق لنا مشاكل.
ارتخت أصابع الرجل، وعاد أنطونيو إلى الجلوس عند عتبة النادي، وهو ينظر بهدوء إلى السيارة. خفق قلبه العجوز. ثم كف عن الخفقان.
واستمر الضابط:
– هذه المرة لا تنزل إلاّ بأمري.
– نعم سيدي.
– اصعد.
– نعم سيدي.
– حمير.
– نعم سيدي.
استمرت السيارة في زحفها. تمنى الذين كانوا بداخلها أن يكونوا أوروبيين حتى لا يعتقلوا. تتبع أنطونيو السيارة وهي تزحف. سارت طويلاً في الشارع ببطء. ومن هناك، قبل لحظات سار النباش أيضاً، يبحث في قمامات الأزبال.

عندما كانت بريجيت تهيئ شيئاً في المطبخ، سمعتْ فرانسوا يتكلم إليّ، لكني لم ألتقط من كلامه شيئاً، كنت أتأمل منارة المسجد المقابل وقد زينت بمصابيح حمراء وزرقاء، بمناسبة دينية، لم يكن عندي شعور تأملي ديني لحظتها ولكني كنت أتأمل في أشياء، والواقع أني لم أعرف ما هي بالضبط. سمعت فرانسوا يناديني فغادرت الشرفة وأنا أقول:
– ماذا تريد؟
– ألم تسمعني؟
– كنت أتأمل منارة المسجد المضاءة.
– هل تنوي الذهاب للصلاة؟
– لا تمزح أكثر.
– إذهب وصل لعل الله يفتح عليك.
– بماذا؟
– بالجحيم.
قلت بغضب:
– قل لماذا ناديت عليّ. دعني أشم قليلاً من الهواء في الشرفة. كانت رائحة الخمر تفوح كريهة من فمه، خصوصاً وأن الخمر من آخر درجة، وأني لم أشرب بعد. عندما أكون شارباً لا أعير أي اهتمام لرائحة الخمر، بل لا أحسها إطلاقاً. أما عندما لا أشرب فإني لا أطيقها بل أتصور أن الشارب مسحوق، وقذر، وأن عليه ألا يتعب نفسه بالشرب كي يحل مشاكل لا يمكن التغلب عليها في الحقيقة، إلا في حالة الوعي التام. قلت لفرانسوا:
– لقد سكرت. أنا لا أطيق المزاح.
وسمعت بريجيت من المطبخ تقول:
– فرانسوا، دع عنك حمدون.
قال فرانسوا بصوت مبحوح:
– هل تغارين من زوجك؟
قلت:
– ماذا تقول أيها القذر؟
قال فرانسوا:
– اجلس سأبوح لك بسر. هل تستطيع أن تخمن؟
– ممكن.
– خمن إذن.
– إنك سكرت وأنك ستقلق راحتي.
– إنك مخطئ. إفتح أذنيك لأقول لك. هل فتحتهما؟ افتحهما جيداً.. هكذا. حسن جداً، إن بريجيت زوجتي تحبك.
– قلت إنك ستقلق راحتي وراحة بريجيت أيضاً.
– لا يهم. (كانت رائحة الخمر تفوح من فمه) إننا صريحان ولا نخفي عن بعضنا شيئاً لقد قالت لي.
– إنها تحبني.
– نعم. ويمكن أن تسألها. و(يصرخ) بريجيت، تعالي وقولي له. إننا صريحان يا عزيزتي.
وقالت بريجيت في المطبخ:
– كفى تفاهة. دع عنك حمدون. دعه يشم هواء.
وكان ذلك بمثابة أمر بالنسبة إليّ لا بالنسبة إليه. وقفت ومشيت نحو الشرفة وأخذت أتأمل الظلام، والمصابيح المضيئة في المنارة، وتمتعت بلفح الهواء الذي يحمل روائح نباتات وأزهار الشارع والحديقة العمومية القريبة من البيت. كان الجو حاراً هذا العام في نهاية أكتوبر لقد امتد الصيف حتى نوفمبر، لذلك كان من المتع حقاً الجلوس في الشرفة، أو في الحديقة العمومية، أول المساء. وذلك ما كنت أفعله طيلة هذين الشهرين. أقتني زجاجة خمر في الغالب وأجلس في الشرفة الواسعة أحصي النجوم، وأتخيل أشياء بعيدة، غير موجودة ربما وراء تلك الآفاق اللامتناهية. وقد يتركز تخيلي في شيء واحد، يراودني مراراً. أتخيل أن هناك أراضي أخرى وشموساً أخر، إلى ما لا نهاية. وأظل أسترسل في ذلك الخيال إلى أن تتغلب عليّ الخمر، فأرفع من صوت المذياع لأني أحب الصراخ، وحتى عندما أسمع الطرقات عند الباب، فإني لا أكلف نفسي الوقوف للذهاب إلى الباب. لم يكن ذلك يعنيني بقدر ما كانت تعنيني جلستي المستريحة، تحت تأثير الليل

والخمر. لم يكن ذلك يعنيني حتى ولو كنت متأكداً من أن المرأة هي التي توجد خلف الباب.

كانت بريجيت تكبر فرانسوا بـ١٢ سنة على الأقل. بينما كنت أكبر فرانسوا بعامين، ومع ذلك فقد كان يبدو أكبر مني سناً: إلاّ أن تجاربه محدودة، وما يحكيه لي لم يكن يثيرني على الإطلاق. كنت أجد فيه شيئاً صبيانياً، أحياناً عندما يصدر حكماً يلتفت إلى بريجيت لتصحح له. في الواقع لم تكن له شخصية. ومع ذلك لم يكن يحبها، في حين تعلن هي أن الحياة بالنسبة إليها بدونه مستحيلة. كانت تحبه كما تدعي، حباً لم يكن أحد في العالم يستطيع أن يقدره. أما أنا شخصياً فقد كنت أقدر هذا الحب. وبتدقيق فقد كنت أعرف معنى أن تحب امرأة تكبر رجلاً بـ١٢ سنة. كان الليل مثيراً، والمصابيح الموزعة على طول الشارع، وفي أماكن أخرى نائية، داخل مربعات ومستطيلات تبعث في نفسي رهبة لا حد لها. كنت أسمع الحوار يدور الآن خلف ظهري ولم أستطع تمييز كلمات بريجيت. غير أن كلماتها أخذت ترتفع شيئاً فشيئاً وهي تغادر المطبخ وتتجه نحوي. سمعت خطواتها وهي قادمة إلى الشرفة. لم ألتفت، بل أحنيت نصفي الأعلى ووضعت رأسي بين كفي وقررت أن أهملها. لكني شعرت بكف توضع في مكان حساس من جسدي سمعت بريجيت تقول:

– حمدون

– نعم

أحاطت ذراعها بخصري، فشعرت بلهيب:

– لقد سكر. تعال انظر الحالة التي أصبح عليها الآن.

– إنه يقول أنك تحبينني.

– لا يهم. تعال انظر. لقد ارتخى بصفة نهائية فوق البساط وأخذ يشخر.

– ماذا تقصد؟

– لا أدري. أقصد أنه يحب من يمازحه.

– أقول إنه سكران. تعال انظر.

– أعرف أنه سكران.

– لكنه لم يتعش.

– يمكن أنه لم يشعر بجوع.

مشت بريجيت أمامي في الشرفة، فأثار لأول مرة انتباهي. وكان فرانسوا حقاً قد سكر. تمدد فوق البساط وأغمض عينيه. أرخى ذراعيه وانبطح على ظهره. صار الآن مثل دودة رخوة لها ذراعان طويلان ورجلان معقوفان انحسر عنهما السروال فبرز شعرهما كثيفاً، أشقر. بعض العروق تظهر فوق الجلد وكأنها تتحرك. تخيلت الدم يهدر مثل ماء خرج من القنوات. ركلت فرانسوا برجلي حتى آلمتني:

– استيقظ. فرانسوا. هيه. استيقظ، سنذهب الآن إلى مكان تحبه جيداً.

قالت بريجيت:

– إنه لا يسمعك. بل لا يمكن له ذلك.

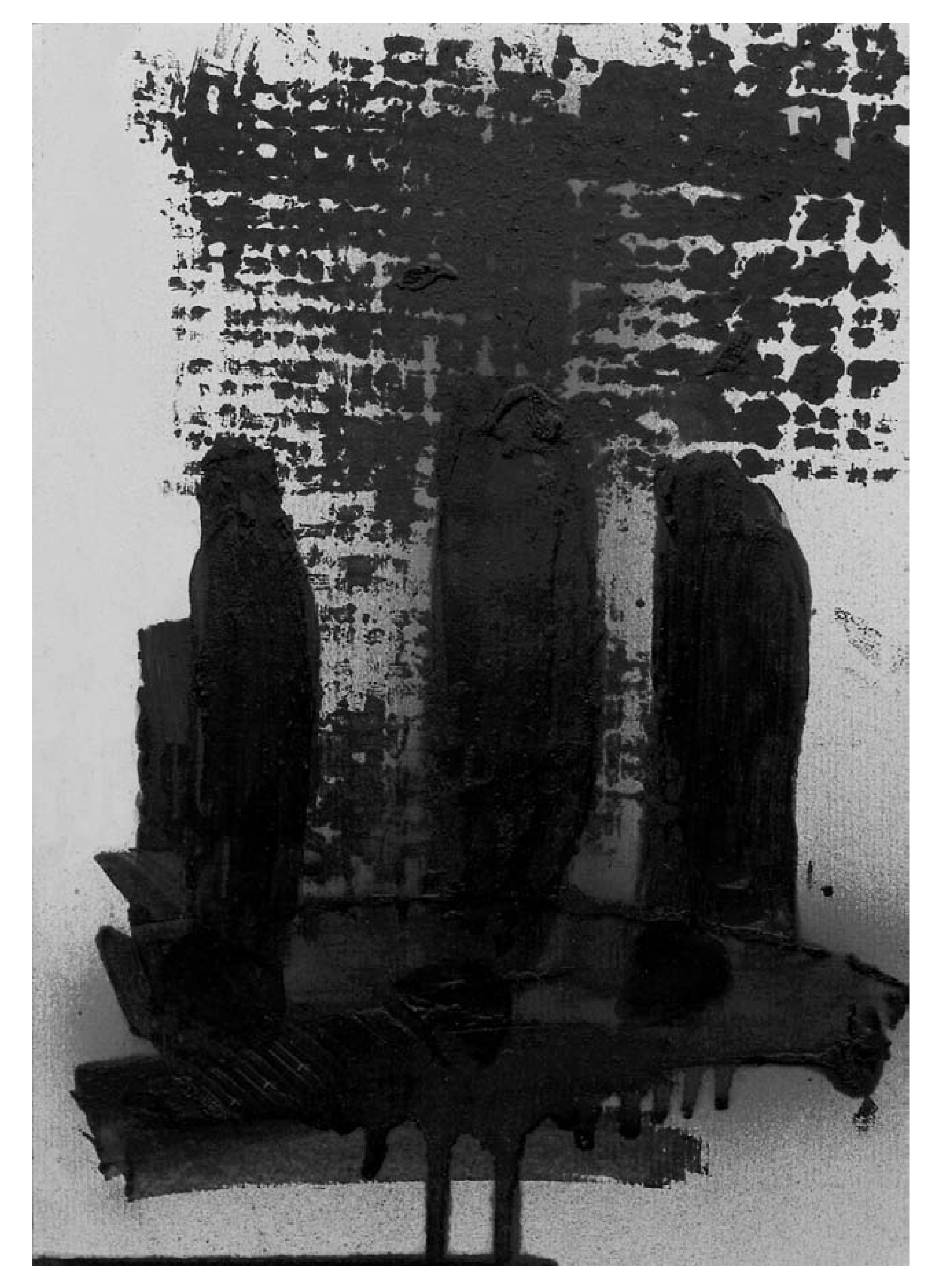
– إنه ليس سكران، يمكن أنه في حاجة إلى النوم.

– كأنك لا تعرفه. ألم تسكر معه مراراً.

– لكني لم أره في هذه الحالة قط.

– ها أنت تراها. أعتقد أنك أنت السبب.

رفعت عيني إلى بريجيت لأرى فيما إذا كانت حقاً تريد أن تشتمني لكن عينيها كانتا دافئتين ونظراتهما شهوانية، ممتعة. تيقنت إذ ذاك أنها لم تكن تقصد ما تقول، بل كانت تريد إثارتي فقط. ولم أعرف بالضبط إلى أي شيء كانت تود أن تصل. ألقت بقبقابها بعيداً عن البساط الذي تمدد فوقه فرنسوا، وأخذت تحوم حوله حافية. قدماها صغيرتان وساقاها غير ممتلئتين بما فيه الكفاية. فكرت على كل حال أنها امرأة. ثم: أنني على كل حال، رجل. ثم – عفواً – إنه على كل حال، رجل. دفعت فرانسوا مرة أخرى وحاولت أن أوقظه. لم يكن نائماً. رفعت بريجيت الزجاجة الفارغة والكأس من فوق الطابلة الصغيرة، ومشت نحو المطبخ، حاولت أن أتبعها فعدلت عن الفكرة، واستمررت في دفع فرانسوا بقدمي. استعنت هذه المرة بيدي، لكن عبثاً. سمعته يزم، فقلت ماذا تقول. كان يزم فقط. استمر يزم، والتقطت كلمة (بريجيت) لكنني لم أفهم شيئاً من الجملة الأخرى. وأخذت أفكر فيما إذا كنت أمر بنفس المرحلة عندما أسكر، وهل كل سكير لا بد وأن يحصل له نفس الشيء في النهاية لم أستطع أن أصل إلى نتيجة. بدت لي النتيجة صعبة عسيرة، مضببة أحياناً. كيف أستطيع أن أصدر حكماً غير مبني على قرائن واضحة وجلية. جلست على البساط، قرب الجثة الملقاة التي تصدر عنها أصوات مثل أصوات الخنازير. فكرت أن أقول لفرانسوا استيقظ أيها الخنزير. ثم



فكرت: ما جدوى ذلك. هل تكفي كلمة خنزير لإنقاذه من الحالة المتردية التي هو فيها. أردت أن أنادي على بريجيت لتناولني كأساً. إذا بقي هنالك شيء في قعر زجاجة. كان عندي شعور بالغيرة من حالة فرانسوا. ما أروع أن يغيب الإنسان نهائياً عن حقيقته. دخلت بريجيت من المطبخ. وقالت من خلال سعال. (لماذا تمددت مثله. هل أنت سكران كذلك). لم أجب. ظللت صامتاً ممدداً على البساط. ورأسي عند مؤخرة الجثة أمامي. ثم انبعثت منها رائحة كريهة، فرفعت رأسي وقلت بصوت مرتفع (خنزير).

فقالت بريجيت: (ماذا هناك؟)

– لا شيء.

– من الخنزير هو أم أنت؟

قلت:

– أنت.

– أنا.

– نعم.

– وقح. اسكت. الأحسن أن تسكر مثله لتغلق فمك.

– هات لي خمراً. هل بقي شيء في قعر زجاجة؟

– نعم هنا سم هل تريده؟

قلت وأنا أجلس، والرائحة ما تزال تملأ الدائرة الهوائية من حولي:

– هل تريدين أن تقتليني؟

ضحكت:

– نعم. أنتما معاً.

– ألا تحبينني؟

– أحبه هو. لا أنت.

– قال إنك تحبينني.

لم تجب. بل سمعتها تقول (خنزير) من المطبخ. ولم أعرف من كان المقصود بكلمة خنزير: أنا أم هو. وأردت أن أسألها فلم أتمكن. تمكنت من شيء واحد فقط. وقفت في إعياء ومشيت حافياً إلى المطبخ. كانت منحنية تبحث في بعض جوارير المطبخ. لم أتمالك نفسي. فضربتها بيدي من الخلف. وتوقعت أن تكرر كلمة خنزير. لكنها ضحكت وقالت:

– كفى. أوه حمدون. سوف يستيقظ.

– إنه لا يهتم بك.

– ليس هذا شغلك.

– إنه عاقر.

– ليس هذا شغلك. إنه صديقك. شوف لك مجلة مصورة تتلهى بها.

– أشوف لي مجلة حية: من لحم ودم.

– غير ممكن. اذهب واسترح، أو أخرج إلى الشرفة لترى المنارة المضاءة اليوم عيد للمسلمين.

– ليس هذا شغلي.



تحوّل

عن اليمين الأشجار الخضراء تتخللها الألوان، وخلفها بياض البنايات، وفي بطن جدار أمامي، ظل سليمان ينظر – من المقهى – إلى صورة مريم محتضنة طفلها.. ثم يتأمل بوضوح هذه الحركات التي يقوم بها العجائز والأطفال والناس السذج أمام هذه الصورة.. الكرماء منهم يدفعون بحصة من مجهودهم اليومي في ثقب موجود تحت الصورة على بطن الجدار.. – الثقب في متناول الجميع حتى الأطفال – وتحت قدم سليمان، في الشمس القزحية، حقيبته الزرقاء، وخطوط في الأرض منتشرة على الطوار.. الوطن بعيد من هنا بعشرات الكيلومترات. وشعر بارتياح داخلي وهو على هامش المقهى شبه الخاوي.. كل الناس يشتغلون في هذه اللحظة بالذات، إلاّ هو، فهو لا يشتغل ولا يعمل يديه في شيء.. تلذذ بالنظر إلى أناس بسطاء، عشرات من الناس أفرغوا حصصاً من مجهودهم اليومي في ثقب على جدار، وتحت صورة.. هو لا يملك حتى عشر تلك الحصص التي أودعوها بلا مقابل في حفرة.. لو كان يملك عشرها لتغير شكل كل شيء، هذه هي المسألة بأتم حذافيرها..

الموسيقى المنبعثة من الخلف، من قلب المقهى.

– هل تحب الموسيقى؟

– نعم.

– هل تستطيع أن تميز أي نغم هذا؟

– بكل تأكيد «جورجيا أون ماي مايند»

ودفع قدم الكرسي الموضوع أمامه فتحرك الكرسي جانباً بانصياع، ونظر من جديد إلى ارتفاع خلف الأبنية.. هناك جبل كالصخر، لم تكن هناك خضرة ولا ثلج.. وفكر أنه بعد سنوات سوف تغطي البنايات ذلك الرأس الأجرد للجبل، ولن يبقى من منظره المطل على المدينة سوى الوهم، سوى شكل كان ولم يعد.. هذه باختصار قصة شيء وجد في الذهن على الأقل.. مرمي! إن الحقيبة ثقيلة ومتعبة، وما تزال تنبعث بهدوء في قلب الصمت المضجر «جورجيا أون ماي مايند».

– أي شيء تفعله هنا؟

– لا شيء. أستريح.

– لا شك أنك سافرت كثيراً.

– ممكن، لا أدرك شيئاً مما فات..

– يمكنك أن تدرك بسهولة..

– لا أعتقد.. لأنه ليس في إمكان أي واحد أن يدرك ما مر به.. تستطيع أن تستمع إلى «جورجيا أون ماي مايند» وتريحني..

– يبدو أنك تحب الموسيقى كثيراً.

– ممكن..

– ما دام كل شيء سيظل في حدود الإمكان سأريحك..

الناس يعبرون بالمئات، وفي الجانب الهامشي للوحة الطبيعية المعروضة أمام عيني سليمان.. الأشجار الخضراء والألوان المختلفة (والطيور التي لا يراها ويسمع زقزقاتها) ما تزال موجودة هي الأخرى.. إذ لا أحد يستطيع تغيير شكل من هذه الأشكال أو تلك، فذلك هو السر الذي سيظل خافياً. وتحت الجناح الأيسر لمؤسسة كبيرة تكومت السيارات، وعبر الناس بالمئات وتجاوزوا طوراً إلى آخر.. وظل هو يحدق بصمت قاتل، ويدفع الكرسي، ويتحسر على حصص مجهوداتهم اليومية الضائعة في ثقبٍ على جدار..

– هل تحب الموسيقى؟

– ألف نعم..

– إذن استمع إلى «جورجيا أو ماي مايند».

– ألف موافق.. دعني أستريح.

من خلال الأشجار، والبنايات الواقفة بفوضى. تطاولت كثير من الأشكال والصور والغابات، وتحولت مسافات وأبعاد تحولاً عنيفاً وغير موضوعي.. هذا أيضاً.. أنا تعب، وهذا وحده يبرر طلبي للراحة ولو قليلاً من الوقت.. أعتقد أن الراحة ضرورية حتى بالنسبة لدورة الكون.. وسمع سليمان صوت أبيه القادم من مكان بعيد، ونظر بإمعان في اللون المتغير لأصابع يديه..

السفر متعب حقاً.. ما أحوج المرء إلى راحة بعد سفر من هذا النوع..

– اسمع يا سليمان.. من الذي قتل أباك؟

– لا أحد..

– هذا غير ممكن.

– أبي نام ليلته بهدوء ثم مات بهدوء.. في ذلك الصباح رأيته بأم عيني، هادئاً كالمحبة أو الموت.

– لكن، هناك دلائل على مقتله لا على موته.

– أعتقد أن لا فرق بين الموت والقتل.

– طيب.. تكلم بلا مراوغة الآن.. من الذي مزق بَلْغَة أبيك؟

– وجدتها ممزقة..

– وبَلْغَة أمك؟

– وجدتها ممزقة أيضاً.

– وبَلْغَتك أنت؟

– أنا لا أضع البَلْغَة ولكني أضع الحذاء،

– لكن من الذي ألقى ببَدْعِية أبيك من النافذة؟

– هذا أمر لا يعنيني. فالبدعية كانت معلقة ذلك المساء.. وفي الصباح.. أنتم تعرفون الحكاية.. جاءتني «حادة» بالبدعية. وقالت: «سليمان.. هذه بدعية أبيك سقطت من نافذتكم» أمسكتها وقلت هذه بدعية أبي، ولا أحد يعرف من الذي ألقاها من النافذة.. حادة تعرف كل شيء، وهذا فيه الكفاية.

نفث سليمان الدخان.. الموسيقى ما تزال تنبعث. شم لها رائحة ذات طعم خاص إنها تشبه رائحة أشجار الرتم لدى سقوط المطر في الليل.. ما يزال يتشمم الموسيقى بأنفه، وينفث الدخان في وجه الأشكال.. وفي حفرة الجدار الأمامية، حصصهم اليومية ما تزال تتساقط بنظام، وما تزال ابتهالاتهم ترتفع إلى السماء ودعاواهم لا تستجاب في الحين «كل شيء باسم سانتا ماريا..» وهذا في حد ذاته شيء مهم.. فالناس يعبرون بالمئات وهو – المسافر الوحيد – يشعر الآن براحة قوية نسبياً.. لقد اعتقد أنه الوحيد في هذه المدينة، الإنسان الوحيد الذي يشعر بكل عنف – إزاء هذا الغليان – إنه مؤهل لكل شيء. ذات صباح، نظر سليمان في وجه أخته البارد، وأعطى وجهه لهواء النافذة الأمامية – قبل أن يقول كلمته الضرورية والحادة – لم تكن أخته، قبل وفاة والده، سوى طفلة لا تعرف شيئاً عن الدنيا.. اليوم يقولون عنها أنها أصبحت ذكية، وأكثر من عادية، اليوم فقط أصبحت تعرف معنى أن يضيء القمر في ليال معينة من الشهر، وأن تحيض امرأة في أيام معينة، وأن يقال هذا الكلام أو لا يقال.. هذه هي التجارب التي أنضجتها.

– إن أبانا مات.

– نعم.. لا تذكريني بذلك، فقلبي لا يستطيع أن يحتمل أكثر من اللازم، موته ضربة قاسية على قلبي الضعيف.

– أعرف ذلك يا سليمان.. لكن المسألة التي أريد أن أحدثك عنها، هي أن الموت يضع حداً لعدد من الاعتبارات.

– لا أفهم.. تريدين أن تقولي إن كل شيء يتغير بعد الموت.

– نعم.. الأشياء الخاصة تتغير. أريد أن أقول إنه يتعين عليك أن تتغير، أن تحاول إحداث تحول في شخصك.

لكن ما نوعية التحول؟

التحول له شكل واحد، أن نعيش وفق معطيات الموت أو الحياة، هناك ارتباط أساسي بالظروف. لقد مات أبي.. هذا صحيح، لذلك أعتقد أن المسألة لا تعدو كونها واضحة ومفهومة. هناك شخص كان يعولني قبل موته لأنه يملك قدراً بسيطاً وكافياً من المال. أما الآن فيجب أن أعول نفسي.. (وكانت جورجيا أون ماي مايند تشتعل في الهواء، لا تزال لها رائحة أشجار الرتم في ليلة مطيرة.. يقال أن الأشجار تختنق أثناء عملية التمثيل الكلوروفيلي.. يمكن أن يكون ذلك صحيحاً.. ولكن الموسيقى التي لها نفس الرائحة، لا تختنق وإنما تنعش). وظهر وجه أخته مدوراً كروياً أو بيضاوياً، لا يعرف بالضبط مقاييس الوجه.. كل ما في الأمر أن عليه علامات جادة ومميزة.. وفي شفتيها نوع من الشبق الأنثوي المغري.. وعند القدم، أسفل الطاولة، سمع طقطقات بجلد الحقيبة. دفع الكرة الصغيرة التي طاشت من الأطفال وتوقفت عنده بوداعة، دفعها بقدمه، وحدق بشهوة في الجسد الطري لسانتا ماريا، كان بها جوع وتوق إلى المطلق، لذلك فعيناها تبدوان معلقتين، وجسدها يبدو كما لو كان صاعداً بسرعة فائقة إلى الأعلى باتجاه البيت وقلق بياض البنايات، الارتفاع الأجرد يغطي مرئيات أخرى ويدفع بقوة النظرات الفضولية الفاحصة يردها كما يرد الجدار كرة منطلقة بعنف تجاهه. غير أن الطيور التي لا يراها سليمان ما تزال تزقزق في الاخضرار المجاور.. أما هو فيشعر أن العالم ليس ملكاً لأحد، وكان يعي بكل أعصابه أنه سافر كثيراً من أجل التحول، هو الآن يتوقف بمدينة صغيرة بيضاء.. والوطن ليس بعيداً عن هذا المكان.. ولكن العودة.. هذا الشيء المستحيل، هو ما لم يعد يفكر فيه، فمن أجل التحول لا بد من وقوع أشياء غريبة وغير ذات معنى، والتحول هو في الأساس وقوع شيء غير ذي جدوى.. وهذه جميعاً ستبقى مجرد افتراضات، أنا أنظر إلى الأمر هكذا، ببساطة، في حين ينظر الآخر إليه بمنظار آخر، قد تكون الجدوى في الجدوى نفسها، وليس في اللاجدوى كما أعتقد. انطبعت إذ ذاك عدة حفر صغيرة بشكل حوافر الماعز في رأس سليمان.. فالتحول هو البحث عن معنى الوجود..

ومعناه أيضاً استراحة متوفرة وحب متوفر، وأشياء أخرى ضرورية..

– أنا شخصياً أحاول أن أتغير.. كل إنسان يحمل هذا الشعور.. أليس كذلك يا أختي؟

– نعم، وهذا ما طلبته منك في بادئ الأمر.. أن تذهب فتبحث عن عمل، باختصار إن أبانا مات، وليس في مقدور والدتنا أن تفعل شيئاً.

– أنا أعرف أنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً، ومن أجل ذلك أصررت على بذل جميع طاقاتي للحصول على عمل..

– إن ثقافتك تخولك فيما أعتقد..

– أعرف ما تقصدين.. ولكن كل الكتب التي قرأتها عاجزة اليوم عن إطعامي.

– لا تكن كذلك، فكل الناس لا يملكون سوى شهادات دون شهاداتك.

– هذا صحيح، ولكني عجزت اليوم عن إيجاد هذا العمل الذي ترغبين فيه..

– المرء في حاجة إلى تغيير.. أنظر فلاناً وفلاناً مثلاً..

– لقد أصبحت ناضجة أكثر من اللازم.

في السمت.. الشمس تدور على نفسها بسرعة فائقة جداً، وتتكسر إلى ألوان قزحية مبعثرة اخترقت كل المنظورات.. وظلت أشعة الشمس تنفذ كالابر في جسد الموسيقى المندفعة في الهواء، وتحت المؤسسة الكبيرة، على بعد خطوات، راحت السيارات تتفرق في اتجاهات مختلفة، ارتفعت أصوات الكلاكسونات.. ومد سليمان يده إلى حقيبته الزرقاء.. التعب ما يزال يضغط على صدره.. والشمس لم تعد تدور في السمت، ومضى يخترق المنافذ العديدة للمدينة، فشوارعها الضيقة والواسعة تغريه بالمزيد من اللف والدوران، ومضى يدور ويدور ويدور.. واشتبكت في رأسه دوائر كحلقات السلاسل، ودفن بأعصابه، وتشمم الهواء باندفاع. وضع سليمان حقيبته الجلدية الزرقاء عند قدم السرير، وتأمل في اللحظة، كفه التي تؤلمه من جراء الحمولة. رأى أصابعه وهي تتشنج ببطء. تتنمل وقد تجمد فيها الدم. انغرست نظراته في كفّه. الدم حار في رأسه، وأصابعه أصبحت في لون الحقيبة الجلدية، كانت قدم السرير زرقاء هي الأخرى، طلاؤها لامع يعكس ضوء المصباح الكهربائي الأصفر في الغرفة.. جر سليمان قدمه التي أثقلها الحذاء، فدفع الحقيبة التي أحدثت للتو: خش. وتلذذ لسماعه هذا الصوت، فأعاد دفع الحقيبة مرة ثانية فلم تحدث نفس الصوت الأول. ضجر لذلك، وتجمع غضبه في كفه فضرب في الهواء صورة كل الأشقياء الذين يتناسلون في العالم بلا هوادة. وارتمى بثيابه فوق السرير، محاولاً أن يمسح أتعاب السفر الطويل. جذب الغطاء بلا إرادة فلم ينجذب. نظر في السقف فرأى هالة أحدثها المصباح، حول الطلاء الأبيض المقشر.. وركز ذهنه حول هذه الصورة الجامدة الميتة. التفت إلى النافذة التي غطت ستارتها الاطار الخشبي. واتته الرغبة في أن ينهض ويحرك الستارة وينظر في وجه الليل، خلف هذه الغرفة.. لا شك أن الليل الآن هو الليل نفسه. لم يتغير ولن يتغير.. ونهض سليمان ثم فك خيوط حذائيه الأسودين، وربطهما من جديد.. وتذكر أنه لم يزح الستارة فتوجه إلى النافذة ونظر في وجه الليل، وحاول أن يقنع نفسه بأن هذا الليل ليس هو ذلك الليل السرمدي، وشعر أنه يخدع نفسه، حدق في الفراغ الأسود، فبدا له أنه لا يختلف عن السواد الذي عرفه، وربما لن يختلف عن الذي سيعرفه. ثم شدت أصابعه بقوة وعنف على الستارة التي كان ملمسها مغرياً، ناعماً كظهر القطة. لربما كان هو النزيل الوحيد في هذا الفندق، فكر هكذا. ماذا عليه أن يفعل الآن وهو تعب؟

منذ وقت وهو يبحث عن فندق في المدينة البيضاء الصغيرة، فلم يعثر فيها جميعاً على غرفة بأربعة جدران وسرير وستارة ناعمة من ثوب لا يعرف اسمه. إنه الآن يستريح نسبياً بعثوره على غرفة. لكن قدميه تعبتان وكفيه متشنجتان، وأصابعه المتوترة ذات الكدمات السوداء توجعه بقوة. وكانت يده اليسرى تلمس هذه الكدمات في مواساة. كان صغيراً، وكان يبحث عن معنى هذه الكدمات في أصابع أبيه، واليوم أصبح ذلك يبدو له تافهاً. كم نحن تافهون بعض الأحيان. كنت أتخيلها نتوءات على ظهر شجرة عجوز، والآن ها هي ذي تنبت بفوضى على أصابعي بالرغم من أني لا أمارس عملاً يدوياً. كنت أقرأ كثيراً..

أرخى الستارة بعد أن شبع من النظر إلى وجه الليل.. وبعد أن تأكد أنه نفس الليل الذي تركز في وعيه منذ الصبا. خطا نحو السرير مجرجراً قدميه اللتين أثقلهما الحذاء.. واتته كلمات اسبانية من خلف

الباب الصامد في وجه عالم بأكمله، فلم يفهم للكلمات معنى. وقال لنفسه: أنا لا أفهم الاسبانية مع ذلك أعيش، آكل وأشرب وأنام، ثم أطلب لي غرفة في فندق كهذا دون أن أعرف كلمة واحدة، إذن ما قيمة أن أتعب نفسي بحفظ قواميس العالم؟

بدا له الباب الخشبي سوراً حديدياً يقف دون أناس لا تربطهم به أي علاقة. إنه وحده، بين الجدران الأربعة وخلف هذا الباب، متأكد من أنه تخلص من شتى الاعتبارات التي ستشغله للتو، بمجرد مغادرته الغرفة حيث يلتقي بربة الفندق وبنزلاء جدد، وحيث ستكون له علاقة مؤقتة أو دائمة بهؤلاء الأشخاص غير المرغوب فيهم. وتذكر أنه خلال سفره لم يحاول أن يسعى إلى الاتصال بأحد.. لقد كان سجين عالمه الخاص. وفي ذلك المنفى الاختياري اكتشف تلك الحقيقة الفردية التي تتعدى جميع الحقائق. إن العلاقة بالآخرين إنما تتعبنا لا غير، ولذلك فهو في حقيقته الفردية قد وجد الخلاص، وكان يتفرج على الأشياء من برج حقيقية. إن كل ما يراه الآن، وما كان يراه سابقاً ليس إلا مجرد مظاهر، ولذلك فنحن إذ نربط علاقة ما فإنما نربطها مع المظهر لا غير. أنا نفسي لست إلا مظهراً، قال لنفسه. ففي بعض الأحيان تضيع حقيقتي وأصبح مرتبطاً بالمظاهر الخارجية، ولا أنقذ من ذلك الاندماج إلا بصعوبة.

اتجه سليمان إلى حقيبته الزرقاء، ووضع يده على المفتاح الصغير اللامع، ففتح الحقيبة. ما عساه أن يفعل؟ في بعض الأحيان يسبقنا الفعل قبل أن نقرره، ولكنا مع ذلك نسأل عنه. في إحدى المرات – وكان سليمان ما يزال في وطنه – تشاجر مع شخص لا يعرفه. لقد ضرب ذلك الشخص دون أن يشعر ودون أن يقرر القيام بالفعل. غير أنه في النهاية كان مسؤولاً عنه، وقدم غرامة للمحكمة. أما الآن فقد فتح الحقيبة دون أن يدري لماذا. لكن يديه سرعان ما امتدتا إلى ثيابه التي اتسخ أغلبها وجعل يقلبها بشكل عصبي. عثر في النهاية على معجون للحلاقة، ولمس للتو وجهه الذي تبقل. لكنه أعاد المعجون إلى مكانه. وأقفل الحقيبة الزرقاء من جديد. وذهب إلى النافذة لينظر في الخارج. حاول أن يتبين وجه السماء، غير أنها مختفية في اللامتناهي، خلف ظلمة كثيفة شديدة السواد. وما لبث ينظر وينظر. هناك هواء مسائي خفيف منعش يداعب وجهه، ويؤرجح الستارة فوق الاطار الخشبي. وشد على الاطار بكل أعصابه، وجعل يستنشق الهواء اللطيف بجذور أنفه. كانت ألياف وجهه الآن تتمدد وتسترخي. وشعر أنه – تحت رحمة هذا الهواء المنعش – يدخل في مرحلة نفسية أخرى. لقد ظلت أعصابه متوترة طيلة هذا اليوم، أما رأسه الثقيل فقد بدأ وزنه يخف تدريجياً. والتفت إلى السرير الجامد، وتوجهت نظراته إلى «الكومودة» عند رأس السرير. هناك منفضة مستديرة تدعوه لأن يملأها بالأعقاب هذه الليلة. ظل وجه أخته مدفوناً في المنفضة، فقد شهوانيته، وتحولت استدارته إلى شكل آخر. لم يعد كروياً ولا دائرياً ولا بيضاوياً. أصبح رمادياً عليه آثار الجذري. فلن يستطيع الآن جميع علماء الجينيالوجيا والأنساب أن يقولوا بأنها أخته من أبيه وأمه. كل شيء أصبح رمادياً ومشوهاً. غير أن سليمان لا يدخن كثيراً. لا يدخن كثيراً. ومد يده إلى جيبه وأخرج سيجارة. ثم بحث عن علبة الثقاب في جيب آخر. أشعل السيجارة بآلية. ثم بدأت جذور أنفه تلفظ الدخان في هواء الغرفة. وجعل يدخن بسرعة وعمق. ثم تكونت أمامه سحابة صغيرة من الدخان تحولت إلى شكل حيوان غريب. لم يره في حياته قط، وربما لن يراه أبداً. وتوجه إلى المنفضة فدفن فيها ما تبقى بين أصابعه من السيجارة الرخيصة ذات التبغ الأسود. ثم هرول سريعاً وفتح باب الغرفة ونزل السلم كمن أصابته نوبة عصبية. ثم تذكر أنه لم يغلق الباب خلفه، ولم يأخذ معه مفتاح غرفته، فعاد بسرعة وأطفأ الضوء. ثم بحركة بطيئة أدار المفتاح. ثم شد على المقبض ودفع الباب ليتأكد من أنه مغلق، ثم نزل السلم الحجري بهدوء أعصاب. وعندما بلغ الباب علّق المفتاح فوق اللوح الأسود الذي كتبت عليه أرقام الغرف بالفندق. كانت عشرون غرفة. فوق اللوح ثلاثة مفاتيح. ثم غادر الفندق.

بدا وكأنه تناول مخدراً مهدئاً للأعصاب. تحسس جيبه وهو في الطريق، فعثر على بضع «بسيطات». وقال في نفسه أنها تمكنه من أن يشرب شيئاً بأقرب مقهى إليه، واصطدم مرفقه بجسم رجل غليظ قصير وهو يدخل البار. كان هذا الأخير – وهو ممسك بقبعته يحاول أن يضعها فوق رأسه – يغادر البار ثملاً. واصطدم سليمان بعيون بليدة، راكدة النظرات، خامدة. توجه إلى الفاصل حيث «تابوريهات» فارغة تقف في الهواء كالعسس. وجلس على أحدها. وأتاه البارمن ذو الوجه الانثوي وقال له بدلال: – سنيور –! فأجاب سليمان بارتخاء وإيجاز: شيء بارد!.. ذهب البارمن. وجه سليمان في المرآة قد بدأ يتخذ له شكلاً آخر، كان مستديراً فيما سبق، وها قد بدأ يستطيل الآن. لقد أرعبه منظر وجهه وهو مشوه في المرآة التي التصق بها بخار من جراء تنفس الرواد. وشعر أنه غريب في عالمه الوحيد الشخصي. التفت إلى زبون ونظر في وجهه، وعينيه وأنفه وشفتيه. وقال لنفسه: يجب أن أبتسم له. وعندما ابتسم ابتسامة باردة. ابتسم له الآخر في ارتخاء بفعل كؤوس متعددة أفرغت في بطنه، ولكن ابتسامته مع ذلك جاءت دافئة وانسانية. جاءت من عالم آخر لم يستطع سليمان أن يعرف حقيقته. دس الشخص الغريب ذراعه تحت إبط سليمان، كلمات خشنة تغرغر في حنجرته. خلفهما ظلت المقهى صامتة، والليل قد احتوى بعمق كل الأشياء المرفوضة. ماذا يريد هذا السيد بالضبط؟ قبل لحظة عندما تبادلا الابتسام. تكلم سليمان عن حياته بإيجاز وتركيز.

– يوناني؟

– مغربي.

– لا شك أنك طالب.

– لا.

– عامل؟

– لا..

– من أنت إذن؟

– لا شيء..

ورفض سليمان أيضاً كل الاعتبارات، وحك أنفه المشقوق من طرف رائحة زاكمة ومغثية. كان مسروراً من هذا اللقاء العابر، وقال للرجل الغريب محولاً الحديث:

– أنت من هنا؟

– نعم.

– وتعمل هنا؟

– هنا أو هناك. هذه أشياء تقترحها الظروف.

– بأي شيء تشتغل؟

– بكل شيء...

قلت أنك لست طالباً ولا عاملاً. هل تشتغل معنا؟

– بكل تأكيد.

– لقد كان هناك جزائري يشغل مكانك. أظن أنكم تتشابهان في المزاج... هذا لا يهم.

ووضع الرجل الغريب ذراعه حول عنق سليمان وضمه إليه بحرارة. رائحة السردين والخبز تتبخر من أوعيته. وأخرجه من المقهى. ها هما يمضيان الآن في الشارع المؤدي إلى الجهة الشرقية من المدينة. قال إنه سيشرح له كل شيء.

– سأضيع الطريق المؤدية إلى الفندق. ثم إن أمتعتي ما تزال هناك.

– إني أعرف الفندق.

ذراعه ما تزال متشابكة مع ذراع سليمان. يبدو أن الرجل شرب كثيراً، لأن سليمان يجره كما لو كان يجر جثة ميتة من قعر النهر.. سقط بتلكؤ في حفرة مستديرة على الطوار، وجذبه سليمان إليه. فقال الرجل الغريب:

– يمكنك أن تتوقف الآن (وتوقف).

– لماذا؟ هل تعبت؟

– نعم. أستعيد قوتي.

– خذ لك مهلة.

ونظر الشخص الغريب في وجه سليمان المُتَبَقِّل الحزين بتركيز.. لم يكن هناك أي احتمال للسقوط بينهما. فمنذ لحظات فقط، لم يكونا يعرفان بعضهما. وها هما الآن أصبحا متآلفين. أعلن في وجه صديقه:

– هل انتهينا؟

– أجل..

– إلى أين؟

– تنفس ببطء وبحرية. ستصعد. هل تحب المساء؟

– لا أعرف.

– إذن لا داعي للوقوف.

وبتلكؤ وتراخٍ قال سليمان:

– هيا اُصعد.

كانت الخمر قد توغلت في تجاويف دماغه. وعبر الخيوط والألياف الممتدة في رأسه كان الشخص الغريب يشعر بحرارة فائقة وقاتلة. وقال من خلال التشجؤ الشبيه بالقيء:

– اسمع، هل تستطيع بحق أن تعمل معنا؟

– نعم. هذا ممكن. ثم إن الأمر يتعلق بنوعية العمل.

– خذ راحتك الآن. هل تستطيع أن تساعدني على الصعود. الطابق الثاني.

دفع سليمان الشخص الغريب بكل قوته من درجٍ لدرج. ثم بعد لحظة وقفا كماردين وسط غرفةٍ صغيرة متسخة. نافذتها تطل على فراغ سحيق ليلي، نظر سليمان عبرها إلى لاشيء، وقال بتقطع:

– هل تسكن هنا؟

– أجل..

– وحدك؟

– وحدي أو مع صديقي، حسب الظروف. انظر..

نظر سليمان ببطء في كفي الشخص الغريب. هناك علبة شبيهة بالذهب تتألق تحت وهج الضوء الخافت المنبعث من مكان جانبي وقال بابتهاج:

– ذهب؟!

– لا يهم. إنها من هناك. سنشرح لك كل شيء (رائحة الخمر تخرج من خطمه الأزرق).

وأخفاها من جديد في سترته. ثم توجه إلى السرير الوحيد في الغرفة وألقى برأسه على الوسادة القذرة، ونظر إلى قدم الكرسي في الزاوية.

اسمع، استرح الآن. سوف يجيء صديقي. إنه لا يملك مفتاحاً، يمكنك أن تفتح له الباب إذا سمعت طرقاً.

– حسناً.

نام الشخص الغريب، ترك سليمان شبه نائم على الكرسي قبالة السرير. استيقظ سليمان فجأة غير مصدق وأشعل لفافة. ذهب إلى الشخص الغريب الذي يسمع له شخيراً كصوت خنزير قبيح، وحاول أن يوقظه ولكن عبثاً. ذهب سليمان إلى النافذة ونظر في وجه الليل وفي الأضواء الخافتة القادمة من بعيد عبر أطنان الضباب والهواء المكثف. أحس بالجوع ولم يطق الجلوس على الكرسي، لأن ذلك متعب بالنسبة له. وحاول أن يوقظ الرجل دون جدوى. انسحب إلى الخلف ونظر في فردتي حذائيه المتربتين، وقرر أن يدفع الباب – إذ شعر انه وحيد – ونزل إلى تحت دون أن يغلق الباب. صوت خنزير يطارده بقوة وعنف. رغبته في النوم ملحّة لأن تعبه اليومي تضخم بشكل فظيع. وسار في اتجاه الفندق لينام هذه الليلة، غداً سيحاول أن يسترجع وعيه، ويناقش مسألة العمل مع هذا الرجل الغريب ذي الخطم الأزرق.

أمس كانت رؤاه ليلية لا تبين عن شيء ولا تساعده في ادراك مهوى أو مرتفع.. فالسواد المضبب، والكرات الكهربائية المنتشرة في البعيد لم تكن لتعطيه سوى عالم متشابه، وهو عالم الليل. أما الآن، فبعد الأحلام المزعجة أو اللامزعجة عن رجل الأمس الغريب، فقد راح يدور في غرفة الفندق وقد توضحت معالمها أكثر. ففيها البياض وفيها السواد وفيها الزرقة السماوية المفتوحة. وأما هناك خلف إطار النافذة المفتوحة على ذقن سماوي عميق، كانت الأشياء قد تغيرت كلياً عن أمس. اقترب وجرجر خطوته الأخيرة إلى النافذة. وهو يعرض نصفه الأعلى إلى هواء الصباح، وضع أصبعه على جرح خلّفته موسى الحلاقة قبل دقيقة أسفل ذقنه. بدا له الجرح غائراً ودموياً. ولكنه لم يكن – في الواقع – سوى جرح طفيف لا يستحق أي عناية، بل ولا يستحق كل هذا الاهتمام الذي أولاه سليمان إياه.

أخذ يفكر:

– ذلك الرجل سيشغلني.

– هذا صحيح.

– بالأمس كان سكران بما فيه الكفاية.

– علبته الذهبية رائعة.

– كان إنساناً ومعبراً.

ثم أضاف: أنا أحلم... أنا أحلم.

ولعق شفته السفلى بلسانه الأحمر الذي يقسمه حفير صغير إلى قسمين، ترك لسانه برهة خارج فمه، وعندما جذبه إلى الداخل أحس بنوع من البرودة، وشعر بأن في فكيه ألماً خفيفاً، كما لو كان قد مضغ قطعة كاتوشوك لمدة ربع ساعة. (هذا لا يهم) قال لنفسه. ولكن ما الذي لا يهم؟ لا شيء. لم يكن يعرف. وتحت النافذة تتفاوت نباتات مخضرة في الطول. كانت هناك حديقة ملحقة بالفندق، عليها بعض الكراسي المبثوثة في الزوايا، وقد صبغت باللون الأبيض، فبدت داخل الاخضرار كأرانب صغيرة متجمعة تقضم العشب. وخطر له أن ينزل إلى هناك فيتناول إفطاره، لأنه لم يأكل أمس بما فيه الكفاية.

– النقود ليست كافية. لكن ماذا أفعل؟

– عش أولاً لحظتك الحاضرة وسترى ما الذي تفعله فيما بعد.

– هذا معقول.

ووضع أصبعه على الجرح الصغيرة بذقنه للمرة المئة، هذا الصباح، وتحسسه بعناية وفكر أنه مجرد عابر سبيل من هنا. فهو لم يخطر له في



لحظة ما أن يتوقف أو أن يستقر. ونزل إلى الحديقة الصغيرة. وتحت وهج الشمس الخفيفة استعرض مظهره. لم تكن عليه ثياب تثير الانتباه. إذ أن بعض الأوساخ كانت عالقة بها. وبالرغم من كل هذا، فهو يعرف أن بإمكان المرء أن يستبدل ثياباً بأخرى، غير أن التحول الحقيقي الجوهري هو ما ليس في إمكان أي واحد أن يتوفر عليه. قال ذلك، وأخذ يمضغ بشهية قطعة الخبز المصلوبة أمامه، والتي بدت تحت طبقة الجبن مغرية شيئاً ما، وعندما انتهى، أراد أن يدخن. فبحث في جيبه عن سيجارة. لكنه لم يجد شيئاً. لذلك عدل للتو عن الفكرة وأخذ يشرب القهوة المخلوطة باللبن بتلذذ غير عادي. ونزل إلى الحديقة شخصان وهما يتكلمان بحدة وجلسا إلى طاولة بعيدة عنه. جذب عن رأسه ورقة قد تدلت، فدعكها بخفة وشم رائحتها. وشعر بالوحدة والغربة. وخاف أن يثير منظره اشتباه الشخصين، ولكنهما لم يفعلا أبداً، فربما كانا متعودين على ذلك. أو أنهما كانا منشغلين بما هو أهم. ودعك ورقة ثانية وتشمم رائحتها الحادة. وطارت أمامه صورة الرجل الغريب، وتذكر بسرعة الطريق التي سيمضي منها إليه من هنا... ثم من هناك... وهذا الشارع... ثم من هنا... وبعد ذلك العمارة فالطابق الثاني... وملأت خياشيمه رائحة الورقة المدعوكة، وحمل الفنجان إلى فمه ولكنه كان فارغاً. لقد أتى على كل ما به من قهوة ولبن. ونظر إلى ركبته فاسترعت انتباهه خطوط سوداء مرسومة على سرواله، خطوط زيتية سوداء، ووقف، ثم دار في الهواء، ونظر في مركز دائرة الشمس كإله اغريقي. ولكن تحديه انهزم فجأة، لذلك دار دورته النهائية وانسل من الباب الصغير إلى الطريق، وتنفس بعمق رائحة الأشياء وقد استيقظت كلية. حك أنفه ونظر إلى طفلين يلعبان وقبل أن تستكمل الصورة، قفز الدرجات بخفة كالسنجاب ودخن بوعي نافذ. وقف عند الباب. كانت الساعة الحادية عشرة صباحاً. وضع سليمان يده على الجرس فرنَّ في قاعة بعيدة جداً. وخرجت للتو سيدة متوسطة القامة والعمر:

– سيدي؟

قال سليمان بارتباك:

– هل السيد هنا؟

– نعم (وذهبت بعد أن دفعت الباب قليلا)

كان سليمان في حلم. من تكون هذه المرأة الغريبة؟ هل هي صديقة الرجل الغريب؟

ورفع سليمان عينيه في عيني الشخص الغريب وقال له:

– أعتذر عن أمس. لقد انسحبت لأنك نمت مبكراً.

قال الرجل باندهاش:

– عفوك سيدي... ماذا تعني؟

– البارحة...

– آه... البارحة؟ لا أفهم...

– طبعاً، لا يمكنك أن تفهم لأنك نمت وتركتني وحيداً.

قال الشخص الغريب باندهاش أكثر...

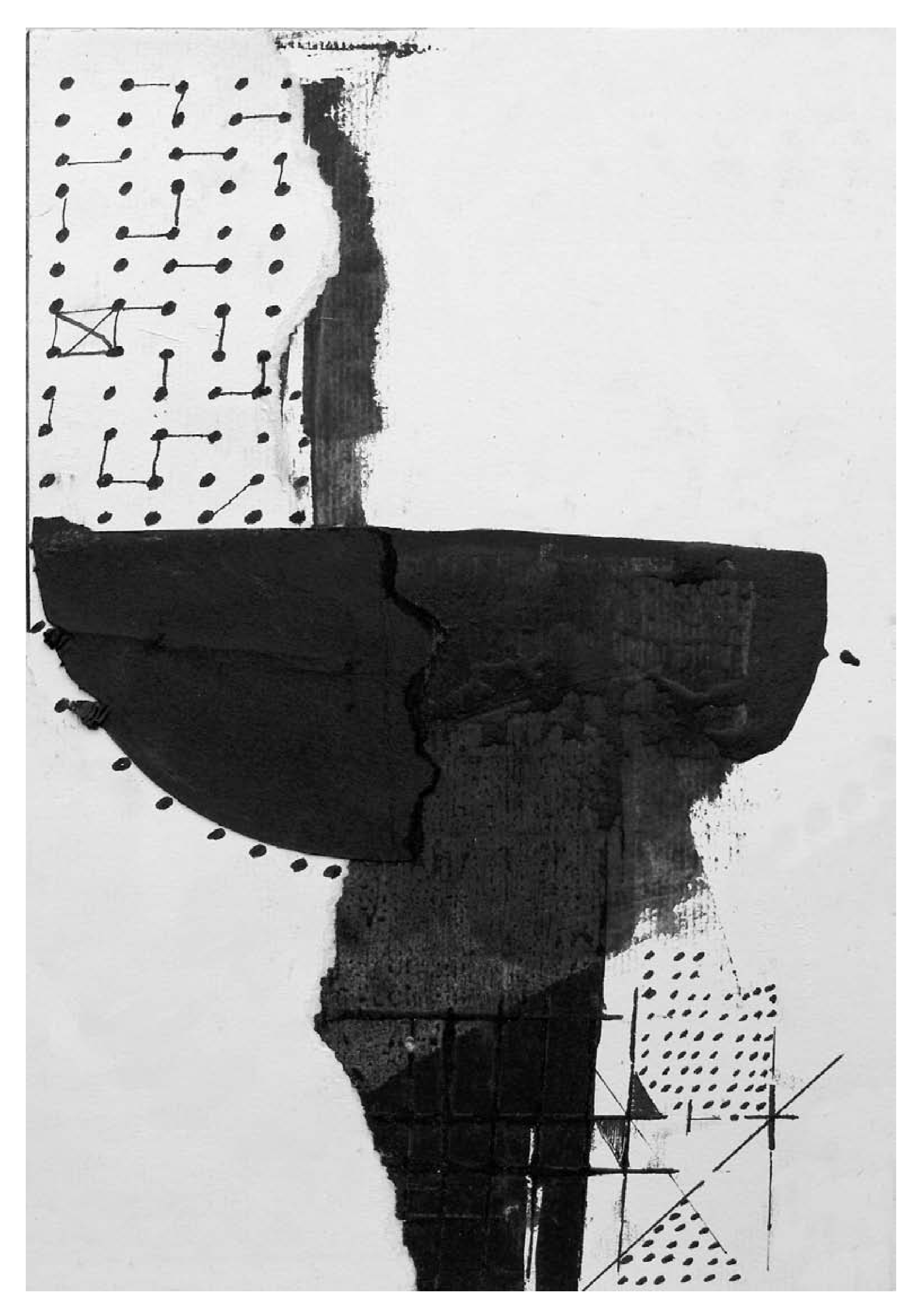
– يمكن أنك أخطأت سيدي، ماذا تعني بالضبط؟

– أنا صديقك أمس. ألم تعدني بالعمل معكم؟

– سيدي أنا لا أفهم، يمكن أن يكون جاري. إنه وحيد وأعزب.

ودفع الشخص الغريب الباب في وجه سليمان، لكن هذا الأخير رده إليه بشدة:

– لماذا تتصرف هكذا مع صديق؟



قال الرجل:

– سيدي لست صديقي، إنني لا أعرفك ولم يسبق لي أن رأيتك. أعتذر إذا وقع هناك سوء تفاهم.

ودفع الباب هذه المرة بقوة أكثر في وجه سليمان الذي انسحب على الفور، وتجاوز الطابق الأول إلى الشارع. كان الطفلان ما يزالان يلعبان. استكمل الصورة الآن في ذهنه، لقد أخطأ الطريق بالفعل إلى الشارع، إلى الغرفة، إلى الرجل.

أخذ يدخن، داس عشرات الأعقاب بفردتي حذائه المتربتين. قرر أن يجرب حظه في اتجاه آخر. لقد وصل أمس إلى هنا، وها هو يمضي كما جاء، رأسه مشعث، وفي ذهنه فكرة يسميها تحولاً. كان التراب على حذائيه ما يزال ملتصقاً بعناد. وكان يشعر بالتعب الممض، ولكنه يرفضه، لأنه اعتقد بادئ الأمر أن للرياح اتجاهات متعددة، وأنه مستعد لأن يسير في إحداها مهما كان الثمن...

وقالت الأخت:

– إنك تعيش على الأوهام.

– هل تعتقدين ذلك حقاً؟

– إني أعرفك كثيراً وأعرف طبيعتك.

– إنك لا تعرفين شيئاً.

– على الأقل بعض الشيء من طبيعتك. إحمل حقيبتك واذهب لتبحث عن عمل في أي مكان. لا شك أنك واجد رجلاً يساعدك على ذلك. إن هناك العديد من الرجال الطيبين الذين لا يمكنهم أن يتنكروا لمبائدهم أبداً.

ملك الجن

كانت الأشجار طويلة، ممتدة، ضاربة في الفضاء من كلا جانبي الطريق، ولكنها مع ذلك لم تستطع أن تخفي بعض قمم المرتفعات الخضراء، التي تتوج ذؤاباتها سحب رمادية أميَل إلى السواد، كان تكاثف السحب وتحركها ببطء يوحي بمجهول مخيف ومرعب. كان الاخضرار يتدرج صاعداً إلى فوق، حتى يندمج نهائياً في لون السحب، تحرك رجلان من الركاب وهما ملفوفان في جلاليب دافئة، وبمساعدة الأب ومساعد السائق، استطاعوا أن يحملوا الشاب المشلول وأن يخرجوه من الحافلة ويضعوه على جانب الطريق مثل كيس. كان ينظر حواليه ولا يتكلم، استسلم لمصيره ببرود ولا مبالاة. وعندما همّ الرجلان بالصعود إلى مقعديهما، ألقت والدة المشلول بدعوات وراءهما.

قال أحد الرجلين: «في سبيل الله!» ثم غطى رأسه بقبّ جلبابه، ولم يلتفت إليها لأنه لم يرفع قط عينيه في امرأة غير زوجته، في حين صعد مساعد السائق إلى ظهر الحافلة وأخذ يلقي ببعض الحوائج التي كانت تتلقفها الزوجة حيناً والزوج حيناً آخر. السائق ينظر إلى كل ذلك وهو يدخن، ينظر في صمت وقد وضع مرفقه على المقود. الناس الذين يجلسون جهة السائق أيضاً ينظرون في صمت إلى الشاب، الذي كان رافعاً عينيه، ينظر إلى حركات المساعد، عندما تحركت الحافلة، جلست الزوجة إلى جانب ابنها فوق إحدى الرزم. قالت له:

– سليمان، هل بك جوع؟

– لا، هل وصلنا إلى سيدي شمهروش؟

– لا أعرف يا وليدي. اسأل أباك.

قال الزوج وهو لا يلتفت إليهما:

– لم نصل بعد. نحن في اسني الآن. لقد قال لي السائق إن أمامنا سبعة كيلومترات لنبلغ أمليل. ومن أمليل نصعد إلى سيدي شمهروش.

قالت الزوجة:

– وهل هناك حافلات تذهب إلى أمليل. إني لا أستطيع أن أحمل سليمان على ظهري. كنت أستطيع أن أفعل عندما كان صغيراً. أما الآن فقد شخت وأصبح هو شاباً.

– لماذا تفكرين بهذه الطريقة؟ لقد قيل لي إن هناك الكثير من الشاحنات وسيارات الأجرة والكراريس التي تحمل الناس من اسني إلى أمليل.

ذهب الزوج وسط الطريق الخالية. وأخذ ينظر إلى البعيد، لعل شاحنة أو أي شيء آخر يكون قادماً. لا شيء. كان هناك صمت، بعض العصافير تزقزق بين أغصان الأشجار. خرجت كروسة من طريق ترابي بين الأشجار المتكاثفة. وقفت الزوجة مفزوعة: «كروسة!» قال الزوج:

– اجلسي في مكانك.

وقال الشاب لأمه:

– الجو ليس بارداً جداً كما قيل لنا.

قالت الأم:

– نعم. لكن سيدي شمهروش تحيط به الثلوج. نحن لم نصل بعد إليه. سكتت وتابعت بنظراتها زوجها وهو يتوجه إلى صاحب الكروسة التي يجرها حمار يكار يلتصق بالأرض. حوّل الرجل اتجاه الحمار، وتوقفت كروسته في الأعشاب على حافة الطريق المعبدة. طلب الزوج منه أن ينقله إلى أمليل، ردّ الرجل:

– كان بودي أن أفعل ذلك، لكن الكروسة ليست ملكي. إنها ملك صاحب البستان. كم تمنيت لو كان في ملكي كروسة! هل أنتم ذاهبون إلى سيدي شمهروش؟

– نعم.

– لا تضيع وقتك هنا. اذهب يساراً، وراء تلك البناية البيضاء، هل رأيتها؟ هناك سوف تجد موقفاً للكراريس التي تقلّ الناس إلى أمليل.

هوى الرجل بالعصا على ظهر الحمار وأصدر صوتاً يحثه على استئناف السير.

سارت الكروسة دائماً على جانب الطريق المعبدة.

انتظر الزوج حتى عبرت سيارة مسرعة الطريق. التحق بهما:

– انتظرا، سوف أذهب لأجلب كروسة. لن أتأخر. الكراريس هناك وراء تلك البناية البيضاء.

قالت الأم عندما رأت الكروسة قادمة تتدحرج من بعيد وراء دابة نحيفة:

– آه. لو كنت تستطيع المشي يا سليمان، لكنا قطعنا هذه الكيلومترات السبعة على أقدامنا ولاقتصدنا الثمن الذي سندفعه لصاحب الكروسة، ولكنك ستستطيع المشي إن شاء الله ببركة ملك الجن سيدي شمهروش.

عندما وصلت الكروسة لمعت عينا سليمان بفرح. سوف يصل تواً إلى سيدي شمهروش وبعدها سيقف على قدميه وسيمشي، كما يمشي كل الناس، وسوف يركض وراء كل صبي ينادي عليه: «آ الزحّاف»، لكن لن ينادي عليه أحد بهذا الإسم منذ اليوم. لن يبقى زحّافاً. سوف يمشي هو أيضاً.

تعاون الأب مع الرجل. أمسكا به من تحت إبطيه. ووضعت أمه يديها تحت مؤخرته. كانت ساقاه متشابكتين فانفرجتا في الهواء. ألقوا به على ظهر الكروسة بعد أن فرشت له أمه قطعة ثوب، طقطق خشب الكروسة، فأخذ الحمار يلتفت وهو يحرك أذنيه وإحدى قائمتيه الخلفيتين.

قالت الأم:

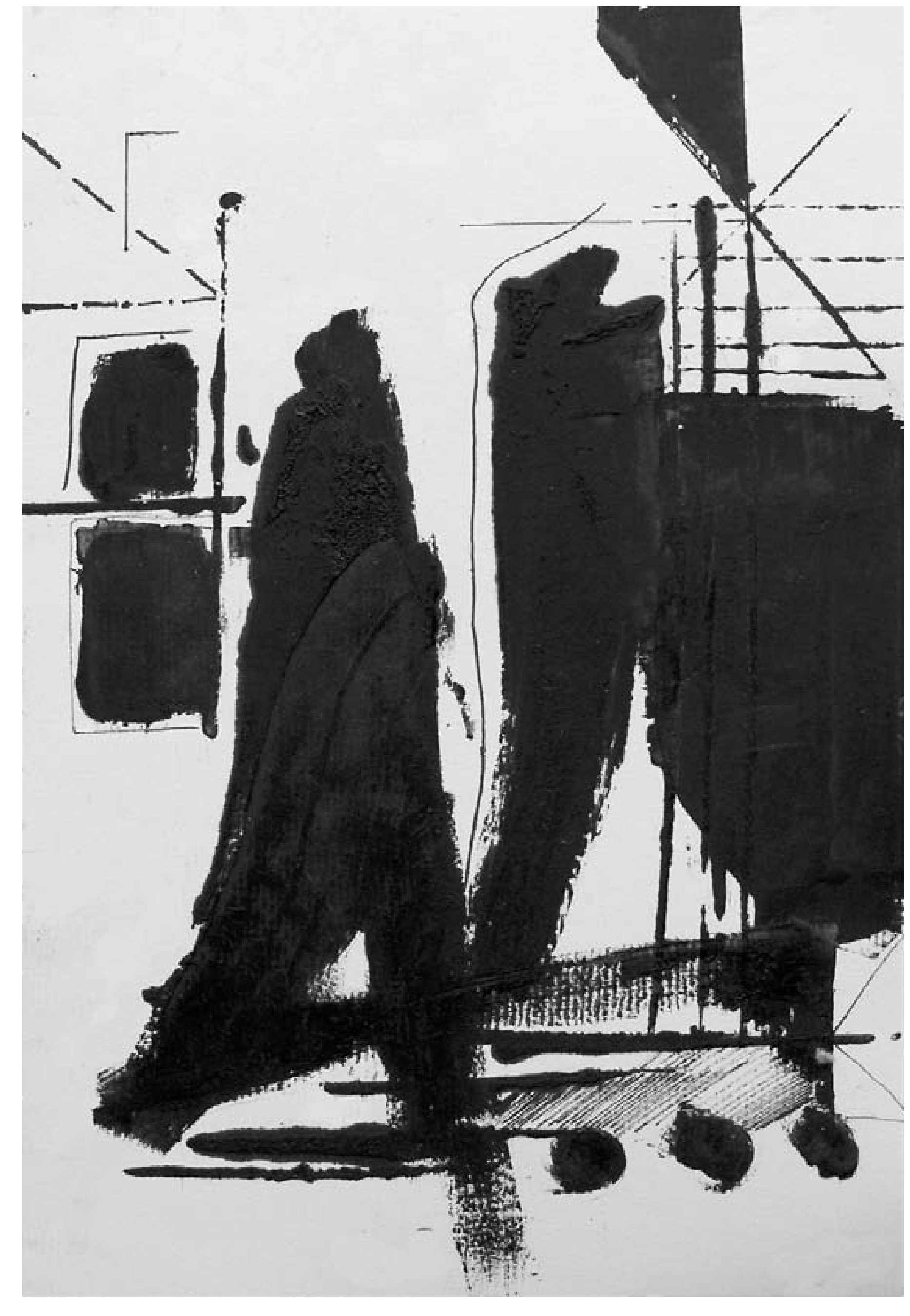
– هل تشعر بألم يا ابني؟

حرك رأسه بالنفي، وكان ينظر إلى تلك الأعالي الخضراء التي تمتد وسط السحب الداكنة. هناك سيدي شمهروش. كم أقام من مُقْعَدٍ زحّاف!

نقلت الرزم إلى الكروسة وركب الزوج والزوجة.

سارت الكروسة في الطريق الضيقة التي تؤدي إلى أمليل. سمعوا بوق جيب من الخلف فأخلى لها صاحب الكروسة الطريق. كان يركبها أوروبيون وأوروبيات.





قال صاحب الكروسة:

– إن الأوروبيين هنا كثيرون. يأتون لتسلق الجبل وهم في كل مكان. يصعدون بالحبال حتى يصلوا إلى سيدي شمهروش. وكم واحد منهم نزلت به لعنة سيدي شمهروش فسقط ومات.

قال الزوج:

– ولماذا يعودون إليه؟

– إنهم يحبون تسلق الجبل، لكنهم لا يكتفون بذلك. بل يفعلون أشياء قبيحة لا يرضاها سيدي شمهروش. وهناك من الأوروبيين من يأتي للتبرك به. هو لا يرد طلب من يلتجئ إليه.

على جانبي الطريق، كانت هناك بعض البنايات البيضاء تختفي وراء الأشجار، وهناك أيضاً أكواخ وزرائب ودواب وقطعان من الماعز تنط في الخلاء. بعضها كانت تمد أعناقها لأغصان بعض الأشجار المتدلية.

صرخ الشاب: «آي!» ثم انقلب على ظهره فأسرعت أمه إليه وساعدته على الجلوس. كانت عجلة الكروسة قد توغلت في حفرة، لم يهتم الرجل لذلك لأنه كان متعوداً عليه. أخذ يضرب الحمار بعصاه والحمار يمد عنقه إلى الأمام. ويحاول أن يخرج الكروسة من الحفرة. ضربه الرجل مراراً. في النهاية انطلقت الكروسة.

قال الرجل للزوج:

– إنهم لا يريدون إصلاح هذه الطريق. كانوا قد وعدونا بذلك أثناء الانتخابات.

قال الزوج:

– نحن كذلك وعدونا بأشياء كثيرة أثناء الانتخابات لكنهم لم يفعلوا شيئاً.

– ماذا يستطيع الميت أن يقول للذي يدفنه؟

بالطبع، لا يستطيع أن يتحدث.

– لكن الله سوف يجازي الدافن والمدفون.

مرت سيارة أخرى وهي تهتز، كانت تجر وراءها عربة أخرى صغيرة، مغطاة بباش مشدود بحبل.

قال الزوج:

– أوروبيين كذلك؟

– نعم. سوف ترى بعينك. لقد اقتربنا الآن.

– قيل لي إن الناس يصعدون إلى ملك الجن على ظهور البغال.

– نعم. سوف آخذكم إلى امرأة طيبة تكترون منها بغلين. إنها من قبيلتنا! توفي عنها كل أهلها وتركوها وحيدة تعيش من تلك البغال الستة. آه عفواً. الخمسة. لأن أحد الأوروبيين المتسخين اكترى منها بغلاً منذ ستة أشهر واختفى هو والبغل.

– حتى هم يسرقون.

– اسألني عنهم. لكن سيدي شمهروش لا يهملهم.

وقالت الزوجة:

– سليمان! مالك؟ لقد اقتربنا يا ابني. سوف تشفى إن شاء الله ببركة سيدي شمهروش.

ظهرت بعض المنازل والحوانيت في الجهة اليسرى. كان هناك أناس قلائل. اجتازت الكروسة امتداداً للطريق غير معبد. أحجار وبحيرات صغيرة من الماء الآسن. كان المكان شبه خال. هناك ساحة وسخة ربضت فيها بعض الحافلات والعربات التي تجرها الدواب. ضرب الرجل الحمار بعصاه. التفت شمالاً. لم تكن هناك سيارة ولا شاحنة. بعض المارة فقط. سقطت امرأة عجوز في جلطة ماء. أسرع إليها رجل فأخرجها من الوحل ثم انصرف دون أن يهتم بما كانت ستفعله بعد انصرافه، أوقف الرجل الكروسة في ساحة أخرى، على جوانبها نباتات خضراء قصيرة، لكن الساحة لم تكن بعيدة عن الساحة الأولى التي تلوثت بالروث وفضلات الدواب. كان في الساحة الأخرى غير المعبدة أكوام من الفضلات المبتلة.

قال الرجل:

– يمكنك أن تأتي معي. أنزل الولد والولية. سنذهب إلى تلك المرأة حتى تحصل لك على بغلين. وكما قلت لك فهي امرأة طيبة.

قفز الزوج من الكروسة دون أن يرد على الرجل.

مشى وراءه في زقاق ضيق ثم انتهيا إلى خلاء، حيث يوجد بيت طيني وأشجار وبغال. دخل صاحب الكروسة من الباب المفتوح، ثم خرج صحبة امرأة عجوز في وسط ذقنها وشم أخضر أقرب إلى السواد. لم تكن المرأة تتحدث العربية. قالت بضع كلمات بالبربرية، ثم انصرفت إلى الداخل وتركت صاحب الكروسة يفك عقال بغلين ويستلم الأربعين درهماً من الزوج.

قال صاحب الكروسة:

– إنها امرأة طيبة. يمكنك أن تبقي البغلين معك المدة التي تشاء. لكن عليك أن تهتم بهما، إنهم يبيعون التبن، هناك فوق.

– لن نبقى سوى يومين فقط.

– الناس الذين يزورون سيدي شمهروش لا يبقون سوى ليلة واحدة. سوف ترى كيف أن ابنك سوف يشفى إن شاء الله. سيدي شمهروش لم يخيّب أبداً أمل من يلجأ إليه.

حث صاحب الكروسة البغلين على المشي. ضرب أحدهما بكفه عند المؤخرة وهو يحدث صوتاً معيناً. سار البغلان طائعين. كأنهما متعودان على الرجل. سارا حتى تجاوزا الخلاء، ثم مضيا من الزقاق باتجاه الساحة. إنهما يعرفان مهمتهما. ولا شك أنهما سيفعلان نفس الشيء عندما سيصعدان إلى قمة الجبل حيث مزار ملك الجن سيدي شمهروش.

تولى الأب أمر ابنه، ساعده الرجل على حمله. عانق الأب ابنه بذراعيه من البطن. بينما ركبت الأم على البغل الثاني بعد أن وضعت الرزم في خرج أحد البغلين. قال صاحب الكروسة للأب:

– لا تخف على هذا الشاب. لن يسقط على كل حال. فالبغلان متعودان على تلك الطريق.

ثم ضرب الرجل البغل الأول في أسفل بطنه وهو يصدر نفس الصوت. سار البغل، ثم تبعه الثاني الذي كانت تركبه الأم. بعد ساعتين، كان البغلان قد وصلا إلى قمة الجبل، حيث انتشرت هناك غرف. كان في المكان قبة أيضاً. بعض الأوروبيين يتزحلقون على الثلج، وبعضهم يتزاحمون في البار الوحيد الموجود هناك. جرى رجل قصير القامة، نحو البغلين. تبعه ثلاثة أشخاص، وحاولوا مساعدة الشاب المشلول القدمين على النزول، أخذوه إلى باب إحدى الغرف. قال رجل للأب:

– الثمن ليس مرتفعاً. يمكنك أن تبقى هنا المدة التي تشاء. ابنك سوف يشفى بإذن الله، إن لسيدي شمهروش وعداً مع جدنا. إذا كانت نيتكم حسنة فإن الولد سوف يشفى حتماً. يجب ألا تشك في قدرة جدنا ولا في الوعد الذي أعطاه له سيدي شمهروش.

قال الأب:

– من يستطيع أن يشك في ذلك يا سيدي؟!

– كثير من الناس يشكون في ذلك، وقد استطاع جدنا أن يبتليهم بمصائب كثيرة. تصور أن وزارة الأوقاف ووزارة السياحة، حاولت مراراً الاستحواذ على هذا المكان. هل تدري ماذا كانت النتيجة؟ طبعاً لا يمكنك أن تعرف، أقولها لك دون أن أخشى أحداً. إن أي موظف من هاتين الوزارتين حاول أن يقوم بهذه المهمة، أصيب إما بجرح أو بكسر أو بآفة أخرى. هم يعرفون ذلك اليوم ولا يحاولون أن يقتربوا منا. وإذن، فلتكن نيتك صادقة، وثقتك في وصية الملك لجدنا ثقة واضحة وصادقة أيضاً. قال الأب وهو ينظر إلى زوجته، تحاول أن تلفح ابنها بغطاء صوفي:

– نحن لا نشك في شيء من ذلك يا سيدي، ولذا تحمّلنا هذا السفر الطويل.

قال الرجل:

– هات بركة لخدام هذا المقام. أما ثمن كراء الغرفة فستدفعه عندما تنصرف. إذا أردت تبناً للبغلين وزربية، فكل شيء موجود هناك.

ثم أشار إلى مكان مغطى بأشجار الصنوبر، ووراء الأشجار ثلوج بيضاء تتخللها بقع سوداء. هز الأب رأسه. ثم دس في يد الرجل درهماً واحداً، لوّح الرجل بالدرهم وهو يقول:

– ما هذا؟ هل تمزح؟ أخشى ألا تكون نيتك صادقة.

قال الأب:

– من يستطيع أن يمزح يا سيدي أمام هذا المقام؟

– أخرج دراهم أخرى، واذهب لتلتحق بزوجتك حتى تهيئ لك برّاد شاي ساخن فالبرد شديد جداً، اذهب وتدفأ وإلا فإنك سوف تصاب بزكام هنا.

– نعم سيدي.

ثم تبع زوجته بعد أن أعطى للرجل قطعاً نقدية أخرى. كان الثلاثة الآخرون مبتعدين يثرثرون أمام القبة غير مهتمين بما يحدث. كما لو كانت لهم ثقة فيما يفعله صديقهم.

قالت الزوجة:

– إن سليمان يمكنه أن يزحف وحده داخل الغرفة الآن. متى ندخله إلى القبة؟

– لم أتحدث إلى الرجل في ذلك، ادخلي وهيئي لنا شاياً ساخناً.

– سوف أفعل على الفور. ادخل أنت لتحتمي من البرد.

في الصباح، زحف سليمان وأمه إلى جانبه إلى القبة. قبة ملك الجن سيدي شمهروش. كان هناك مشلولون آخرون، صغاراً وكباراً. كانت أمه أحياناً، تذهب لتهيئ له شاياً. وتعود إليه بكعب الغزال الذي لم يكن يستطيع مضغه لأن بعض أسنانه تؤلمه. لاحظت الأم أن هناك مشلولين زاروا مراراً المكان، لكنهم لم يقفوا على أقدامهم. عرفت ذلك من خلال أحاديث عائلات المرضى. ولكن الواقع، أن سيدي شمهروش هو الذي يعرف ما يفعل. في المساء زحف سليمان مع أمه وأبيه إلى الغرفة. هيأت طعام العشاء، وتبادلت الطعام مع امرأة تعرفت عليها في القبة. أرملة تعيش مع أخيها الذي كان له ولد مشلول. وتلك المرأة هي التي قالت لها بأنهم زاروا المقام طيلة سنتين. إلا أن مشيئة سيدي شمهروش التي شاءت ألا يقف ذلك الطفل على قدميه في هذه السنة.

وقال الزوج:

– لا يمكننا أن نبقى أكثر من يومين. أنت تعرفين أنني لا أستطيع أن أدفع أكثر.

– مسكين ولدنا سليمان، لو كان أبوه غنياً لذبح ثوراً لسيدي شمهروش.

– سيدي شمهروش ليس في حاجة إلى ثور. إنه ملك الجن. هل تعرفين أنه يملك جميع لآلئ البحار، ومدناً من الذهب، ولا يسير إلا على المسك والعنبر...

– ولكن ذبح ثور هو من الصواب والأدب، أمام قبة سيدي شمهروش.

كان سليمان يستمع إلى ذلك كله، وينظر إلى رجليه الهزيلتين المشبكتين. ينظر من خلال فجوة الباب شبه المفتوح إلى الظلام في الخارج، ويتصور جيشاً من الجن، يقتحم عليهم الغرفة الضيقة، يتقدمهم جني أكبرهم سناً له ذيل وقرنان، يمد ذلك الجني يديه التي طالت أظافرها اللامعة. ثم يمد قدميه النحيفتين، ثم يقول له بصوت خافت جداً «قف». ينصرف الجيش فيقف هو، بعد ذلك يدفع الباب بقدمه القوية، ويخرج إلى الظلام، لكن أمه قالت:

– اشرب شايك. عليك أن تنام. ما بقي أمامنا سوى يوم واحد، سوف تقضيه غداً في القبة، ولا بد أن تشفى إن شاء الله يا سليمان يا ابني.

في الصباح جاء أحد خدّام القبة، طرق الباب، ذهبت الزوجة لتفتحه، ثم عادت واختفت لتخبر زوجها. وعندما رأى الرجل الزوج تثاءب بكسل ظاهر وهو يقول:

– هل تبقون هنا مدة أطول أم سوف تنصرفون؟

قال الزوج:

– سوف نقضي هذا النهار فقط حتى يقف ابني على قدميه.

– المهم إذا لم يقف هنا، اليوم، فإنه سوف يقف على قدميه في مكان آخر. أخبرك أن آخر حافلة تمر على أسنى تكون في السادسة والنصف مساءً. ربما وقف ابنكما في الحافلة إذا لم يقف هذا اليوم، كثيراً ما وقع هذا.

– وإذا لم يقف في الحافلة؟

– إرجع في الربيع القادم، لأن هناك فترات يتغيّب فيها سيدي شمهروش، ولا أحد يستطيع أن يعرف تلك الفترات.

– شكراً سيدي.

في الثانية من ظهر ذلك اليوم، كان البغلان يتدحرجان إلى الأسفل.



الرجال والبغال

جمعوا كل ما في القرية من البغال ذلك اليوم، وتساءلنا لماذا البغال بالذات؟ لكنهم عادوا وجمعوا كل الحمير. ولم يكن في إمكان أحد أن يعرف لماذا جمعوا البغال والحمير. لكن الإجابة كانت عندهم وعندهم وحدهم. ففي نهاية الليل عادت لنا بغالنا وحميرنا. وعندما وصلت البغال والحمير دق النفير فأفقنا على ذعر. واكتشفنا أن وراء سلسلة الحمير والبغال سلسلة أخرى من الحمير والبغال. ثم وراءها سلسلة من البشر الحفاة مثلنا، جاءوا من قرى أخرى في السهل. ثم وراءهم جنود مسلحون، لكنهم قلة قليلة تعد على رؤوس الأصابع. وفي ذلك الوقت من الليل اختاروا اليافعين منا. وقالوا لنا ضعوا أياديكم فوق رؤوسكم ولا تحاولوا أن تحدثوا ضجة بأحذيتكم على الأرض. إلا أنهم كانوا مخطئين إلى حد التفاهة، إذ لم تكن لنا أحذية. فحتى البلاغي لا نضعها، وضربني الأجنبي بمؤخرة بندقيته وقال لي إياك أن تفعل ذلك، فأحنيت رأسي وأنا تحت ثقل النوم لأرى فيما إذا كنت أملك حذاء حقاً. لكنه أعاد ضربي فاستقمت واستفقت. ومضى إلى الخلف وربما كان يكرر نفس الشيء مع الآخرين، كانت الأرض باردة والجو ممطراً فتحت أقدامنا جلطات صغيرة من الماء. وعندما تتحرك البغال والحمير متعثرة، تستطيع أن تسمع شلط شلق شلت... وأحياناً يتطاير الماء تحت الجلباب فيصل حتى أماكن بين أفخاذنا فنشعر ببرودة الماء لأننا لم نكن نملك سراويل في ذلك الوقت، سواء كانت فندريسية أو أوربية. ثم يتقلص الجسد ويرتعد المرء في مكانه لأنه لا يستطيع أن يبدي حراكاً، فأدنى حركة تستوجب طلقة رصاصة. على الانسان أن يتحمل البرودة وأن يمشي وفق السرعة التي يمشي بها الجميع، وأحياناً يتوقف البغل الملعون أو الحمار، فتكون أنت المسؤول وتنزل على صدرك أو كتفك، أو عند الكلية، ضربة قوية من كعب البندقية.

ظللنا للحظات واقفين فوق جلطات المياه، وبعد ذلك دفعوا النساء والأطفال والشيوخ. وأدخلوهم جميعاً إلى الأكواخ، وقيل لنا بعربية رطنة: كل واحد منكم مكلف ببغل. هل ترون تلك الجبال؟ سوف نتفرق جماعات وفرقاً. وموعدنا في تلك الجبال. ومن أراد منكم أن يتحرك أو يبدي أي تصرف غير لائق فرصاصة واحدة تكفيه. ولقد كنت متيقناً أن أحداً منا لا يستطيع أن يتحرك. لذلك فهذا التحذير لم يكن في محله، أو ربما كان في محله. قد يتحرك أحدنا دون حتى أن يعرف لماذا، وتكون النتيجة رصاصة واحدة تكفيه.

كانت البغال محملة بالأسلحة، لم نكن نعرف ذلك أول الأمر. بل ان البغل الواحد كان يحمل مدفعين. وكان مقرراً أن نصعد تلك المرتفعات الوعرة. ولم يكن أحد يركب بغله سوى الأجانب الذين خلفنا. فقد كانوا يحرسوننا اعتقاداً منهم أن بامكان أحدنا أن يفر ويختفي في الأشجار الكثيفة التي كانت مبثوثة هنا وهناك، إلا أنني كنت متأكداً أن أي أحد لا يمكنه أن يجرؤ على فعل ذلك، خصوصاً وأن الجو بارد، والمطر ينذر بالسقوط في كل لحظة. ثم ماذا يستطيع أحد أن يفعل أمام هؤلاء الأجانب ببنادقهم ومسدساتهم. كنا نسير في خط مستقيم وراء البغال. ولم تكن البغال متلاصقة. بل كانت هناك مسافة بين كل بغل وبغل. وكانوا قد أخذوا مجموعة أخرى من البغال في طرقات أخرى، وربما ذهب مع تلك المجموعة أصدقاء لنا من قريتنا. لم نكن نستطيع أن نلتفت إلى اليمين أو إلى اليسار. المهم فقط هو أن ننظر إلى الأمام وأن نسير وراء بغالنا نحو تلك الجبال. أما ما تحمله تلك البغال فلم يكن من مهمتنا أن نعرف. الا أننا عرفنا فيما بعد. كانت المدافع وبعض السلاسل الحديدية الكبيرة وأشياء أخرى. أما إلى أين كنا نتجه ولماذا المدافع والبغال؟ فقد عرفنا فيما بعد. إن بعض القبائل قد ثارت على السلطات، وأن هذه الأسلحة ستتوجه لقمعهم ولقمع ثورتهم. وقد يعتقد المرء أن ذلك كان سهلاً جداً، بل على العكس، لم يستطع الأجانب أن يجتازوا أحد الأودية قط إلى يومنا هذا. فهناك، خلف الصخور، وتحتها، وفي قلبها. كانت تنطلق رصاصات تردي العساكر الأخرى. وبعد ما استطاعت القبائل هزيمة الأجانب في الجبال، نزل هؤلاء إلينا ذات ليلة وذبحوا العديد منا انتقاماً لشرفهم واعتقاداً منهم أننا نضرب من الخلف أو من السماء. لذلك ذبحوا البعض منا وبقروا بطون النساء وأخرجوا الأجنة وانسحبوا بالمرة دون أن يعودوا إلى تلك المنطقة. وها هم اليوم يعودون. جمعوا البغال والرجال وصوبوا البنادق إلى صدورنا وظهورنا. وكان منهم البيض والسود. وقيل أن هؤلاء السود مسلمون مثلنا، يصلون ويصومون ويزكون. ولم نتعجب لكون المسلمين مثلهم. فقد كان في صفوف جيش الأجانب مسلمون معروفون كذلك. مشينا واعتقدنا أن الشمس ستطلع بعد قليل، لكنها لم تطلع، حتى شككنا بأن الوقت لم يكن فجراً ولكنه منتصف الليل. البرد قارس والريح عاتية وعواء حيوانات كالذئاب يأتينا من أودية الجبال. لم نكن نرى الجبال ولكنا نتصورها لأن الظلام شديد ولا وجود لضوء. وأحياناً أسمع حنحنة بغل وصوت ضربة من مؤخرته فأحسبها في ظهر انسان. ولما لم يكن الإنسان يصيح أو يتألم فمن الأكيد أنها على ظهر بغل. كانت تلك القبائل قد عادت إلى الثورة من جيد، وسمعنا ذلك غير أننا لم نتأكد من شيء لأننا في السهل. بل سمعنا أن بعض رجالنا – رغم المراقبة الشديدة – قد التحقوا بالجبال، وهم يحاربون الآن إلى جانب القبائل. وتساءلت لماذا يأخذوننا نحن بالرغم من أننا لم نستعمل سلاحاً قط في حياتنا. وسمعت الأجنبي من ورائي يقول بعربية واضحة: «امش يا بوركابي». فأسرعت في المشي مخافة أن يهوي عليَّ. كانت عربيته واضحة حتى شككت في كونه أجنبياً. وبعد ذلك علمنا أن من الضباط من كان جزائرياً. وكانت وجوههم في بياضها وحمرتها تشبه وجوه الأجانب. أسرعت حتى التحقت ببغلي الذي لم أكن أدري ما الذي أصابه فأخذ يركض رغم ثقل الحمل. وأمسكت بذيله حتى يجرني معه. كانت البغال الأخرى لا تفعل مثله. وسمعنا هرير كلاب بعيدة أخذ يمتد ويمتد ويتردد صداه في كل مكان. واشتد الظلام حتى أني لم أعد أستطيع رؤية خيالات البغال الأخرى. وأصابني تعب شديد، وغبطت الأجانب الذين يتبعوننا راكبين. أما نحن فلم يكن لنا الحق في ذلك. وفكرت في الهرب، لكن كيف يمكن. إنهم يستطيعون أن يخرجوك حتى لو اختفيت في بطن أمك. وأخذت البغال تصعد المرتفعات، وبدأ التعب الأكبر بالنسبة لنا. فتمسكت أكثر بذيل البغل، وشعرت بأنه يجرني جراً، وقلت انه لو لم يكن لما استطعت أن أصعد المرتفع، خصوصاً بعد هذا المشي الطويل. كنا قد أدركنا الجبال إذن. ولا شك أن الأجانب سيفاجئون سكان القبائل نائمين فيفعلون بهم مثلما فعلوا





بنا في السابق. سيذبحون ويشرحون ويملحون. وأعتقد أنهم لا يستطيعون لأن هؤلاء مسلحون، ونحن لم نكن كذلك. كانت البغال لا تزال تصعد المرتفع. وشعرت بالبرد الشديد ينبع من الأرض ويتسرب تحت الجلباب بين فخذي، وينتشر في بطني وصدري وكل جسدي. ثم لم يكن الأمر كذلك فقط بل أخذت الأمطار تهطل ببطء ثم قوية وعنيفة. وأخذت البغال تنفصل عن بعضها تحت خيوط المطر، وهي تكاد تسقط أو تتعثر من ثقل ما تحمل. وجاءنا أمر بالتوقف واعتقدنا أول الأمر أن ذلك اشفاق منهم علينا. فأغلبنا لم يكن يرتدي لباساً يقيه البرد والمطر. وفكرت في حالة من يرتدي مجرد تشامير أو قشابة. كيف يستطيع تحمل هذا الطقس اللعين. لقد كنت من المحظوظين لأني أمتلك جلباباً. تجمعت البغال والرجال تحت صخرة كبيرة عالية. وبعيداً عنا فعلت باقي المجموعات نفس الشيء. لم نكن نراها، ولكن علمنا ذلك فيما بعد. وأخذت الأمطار تهطل بغزارة فحنحنت البغال وأشعل الأجنبي سيجارة وأخذ يدخن تحت الصخرة، بعد أن اختار له مكاناً يقيه من المطر.. ثم قدم شخص وتحدث إليه، ولم يكن من حقنا نحن أن نتحدث. وسمعنا ذلك الشخص يقول لنا: «إن الشلوح سيقتلونكم عن آخركم.. لكننا لن ندع لهم الفرصة». كان مغربياً إذن، ويتحدث لغة الأجانب بطلاقة. وتساءلت أين أمكن لهؤلاء أن يتعلموا تلك اللغة. ومن يدري فلربما كان أيضاً شلحاً. ولكن الأجانب استطاعوا أن يجعلوا منه إنساناً آخر، أجنبياً مثلهم. وفكرت في أن أجلس، غير أني خفت من الأجنبي، ولم يستطع أحدنا أن يفعل. وأخذ بغلان يتحركان ويضربان الأرض بحوافرهما. كانت المرحومة والدتي تقول: (إذا حفر بغل أرضاً بحافره، فاعلم أن أحد أقربائك قد مات). وخفت أن يكون الموت قد اختطف أحداً من عيلتي. أصبح الجلباب ملتصقاً بجسدي، ولم يشفق الأجنبي علينا. التصقت بالبغل فتزحزح وابتعد عني. ثم عاد الرجل إلى الأجنبي وتحدث إليه بلغته. فوقف الأجنبي بسرعة خاطفة. وسمعنا الجندي يقول لنا: «عليكم أن تستعدوا. لم نفاجئهم كما كنا نتوقع». وتساءلت: كيف بامكاننا أن نستعد لقتل أخوة لنا في الدين. ثم إننا لسنا مدربين على استعمال السلاح. ومشى الجندي مسرعاً في الظلام حتى لم نعد نرى من خياله شيئاً. في حين أصبح الأجنبي المكلف بنا يدور على نفسه، ويتحدث بلغته. فتساءلت: هل يكون قد أصيب بجنون؟ أخذ يصرخ في وجهي، ودفعني دفعة قوية وأشار إلى البغل فرأيت جاري يرتعد من البرد وكنت أعرفه. كنا حوالي ستة أشخاص بالإضافة إلى الأجنبي والغالب أن كل مجموعة كانت تتكون من هذا العدد. ولما لم أفهم ما قيل لي، عاد الأجنبي إليّ مرة أخرى وقال «كوشون»! علمت فيما بعد أنها تعني خنزير. ووجه إليّ صفعة قوية ثم رفسة بقدمه على بطني. تألمت وسكت. كانت الأمطار ما تزال تهطل قوية وعنيفة. وأخيراً أمرنا بأن نصعد المرتفع من جديد بغلاً فرجلاً ورجلاً فبغلاً. وجدنا في الظلام كوخاً صغيراً مطفأ الضوء له باب مفتوح اقترب منه الأجنبي وصوب رشاشه. وقال لأحدنا أن يدخل لكي يخرج من فيه. فدخل الرجل وخرج. الكوخ خال من أي أثر لإنسان. ولم يصدق الأجنبي ما قيل له، فصوب ضوء بطارية داخل الكوخ. ولم يكن بداخله أحد. رأينا ذلك بأنفسنا. ثم أمرنا بالاستمرار في الصعود مشينا منهكين. وفجأة سمعنا طلقات الرصاص فحرنت البغال وحنحنت ثم وقفت في أمكنتها. كان سكان القبائل إذن يقظين. ثم أمرنا الأجنبي بأن نضرب البغال حتى تتمكن من الانطلاق من جديد. لكن لم يكن لأحدنا عصا. أخذنا نضربها بأيدينا فلم تتحرك. وسكت الرصاص ثم دوى من جديد. ورددت صداه كل الأودية وكل الجبال وكانت الأصوات تأتينا ممزوجة بالريح والمطر. ومن وسط الظلام انضم إلينا جنديان آخران وأخذا يضربان بمؤخرة بندقيتهما البغال، فتحركت بصعوبة. وبعد أن نفذا مهمتهما عادا من حيث جاءا. وسمعت أحدهما يتعثر ويسقط أرضاً، أو هكذا خيل لي. واشتدت طلقات الرصاص فخفت على نفسي. وقال الأجنبي أن علينا أن نمشي بمحاذاة الصخور حتى نتقي الرصاص. لكنه وهو يقول ذلك، مرت فوق رؤوسنا رصاصات كثيرة، وخيل لي أن شيئاً كالدم يتدفق من جسد البغل. كان دماً بالفعل. لقد أصابته رصاصة أو رصاصات كثيرة. احتميت به. وسمعت الأجنبي يئن. وكانت البغال الأخرى قد تفرقت في الظلام والتصقت بصخور الجبل، في حين لم يعد للرجال الآخرين أثر. وتصورت أنهم فروا من غير شك. كان الأجنبي ممدداً بالقرب مني تحت صخرة صغيرة ناتئة، وأطلق رصاصات ثم عاوده الألم، لقد كان جريحاً، ابتعدت عنه بخطوات إلى الخلف، لكنه أمرني أن أقف في مكاني. لم أفهم عربيته أول الأمر. وقفت وقد صوّب رشاشه نحو صدري. ثم أرخى الرشاش من جديد. كان البغل بالقرب مني. مددت يدي إلى الشواري وأخذت أتحسس ما فيه. وعندما وقعت على قطعة من الحديد خفيفة سحبتها وأخفيتها وراء ظهري. وكان الأجنبي يتألم ويصرخ تحت المطر: «تعال يا كوشون، أين أصدقاؤك؟ اقترب..» أخذت أقترب منه في الظلام لم يكن لأصدقائي وجود. لقد نجوا بأنفسهم. حتى البغال الأخرى اختفت تحت وابل الرصاص والمطر. لم يبق هناك سوى بغلي وبغل آخر في الأعلى. وشعرت بالدم يغلي في رأسي، وبغضب لا حد له. وكانت قطعة الحديد ترتعد في يدي. وأردت أن أهوي بها عليه غير أنني ترددت. وأخذت أتراجع قليلاً إلى الخلف. وكان البغل قد انحدر إلى تحت. لكن صوت الأجنبي أمرني بالوقوف مرة أخرى وبالاقتراب منه. لم يصوب رشاشه إليّ أول الأمر. ثم وجهه نحوي وسمعته يطلق صرخة قوية هذه المرة. لقد أصابته رصاصة أخرى من غير شك. وأخذت أرتعد من الخوف فربما أصابتني رصاصة طائشة. ألقيت قطعة الحديد من يدي، ودون أن أستمع لأوامره وجدتني أركض في المنحدر. ثم اصطدمت ببغل ممدد في الطريق، وسقطت على الأرض. كان الرصاص ما يزال يئز في الفضاء، من جهة. وقفت في خوف وجريت. ولم أكن أعرف إلى أين. وسمعت صوتاً يناديني أن أقف. كان هذه المرة بالشلحة. لكني لم أقف. وأطلقت عليّ رصاصة فوقفت وانقض عليّ رجل ملفوف في جلابة قصيرة فوقها برنوس. ثم التحق به رجل آخر. وقال لي الرجل الأول:

– هل أنت معهم يا خائن؟

– لا والله. أنا لست أجنبياً، لقد أخذونا بالرغم منا. إني لا أعرف حتى كيف أستعمل السلاح.

– اسكت.

– لقد أخذوا بغالنا وذبحونا وقتلونا.

لكن الرجل الثاني قال:

– أطلق سراحه. إنه ليس منهم.

غير أن الرجل الأول لم يستمع إليه بل أمسك بي وقادني إلى شجرة قصيرة وربطني إلى جذعها وأنا مستسلم له. وقال لي أن عليّ أن أبقى هكذا حتى يعودا إليّ. لكنهما لم يعودا. ومن يدري فربما يكونان قد ماتا. وعندما طلع الفجر لم أعد أسمع أزيز الرصاص وحاولت أن أقدر أي مكان أوجد فيه لكني لم أستطع كان الهدوء يشمل المكان والأرض مبتلة والمطر قد كف عن السقوط فككت الرباط بصعوبة كبيرة وانطلقت منهكاً أبحث عن طريق توصلني إلى القرية، كانت تلك معركة غنمت فيها القبائل المدافع والسلاح وكل شيء. وأخذوا حتى البغال. وبالرغم من أنهم مغاربة مسلمون مثلنا لم يردوا لنا بغالنا حتى اليوم.



جيران

قال محسوس لصديقه:

– كانت قوية وعيناها تشعان بالحياة.

ردَّ لطيف:

– ومع ذلك فقد ماتت. كثيراً ما يخوننا الحدس أو التخمين.

– كانت تبدو أقوى من الموت.

– أقوى من الموت! إنه تعبير بلاغي. ليس هناك أحد أقوى من الموت حتى الشيطان.

– ومن أدرانا أن هناك موتاً؟

– على كل حال فهو حقيقة. إنه غياب شخص عن حياتنا. لا يستطيع أن يتحدث إلينا. لا يستطيع أن يحبنا. لا يستطيع أن يحقد علينا.

أدار محسوس زر المذياع ليخفض من الصوت. لغط الصوت يأتيهما بشكل ضجيج غير مفهوم خلف الجدار. إنه لغط المعزين من غير شك. تأكد لهما الآن أنها وأخاها لم يكونا معزولين عن العالم. بل كانت لهما علاقات كثيرة. حقاً، لقد كانا منطويين على نفسيهما. حتى أن بعض الناس تحدثوا عن علاقة مشبوهة بينهما. بعضهم كان يعتقد أنهما زوجان.

قال محسوس:

– عندما كنت أقول لها بونجور لم تكن ترد. اعتقدت أول الأمر أنها صماء. لكن الواقع، أنها كانت شديدة الخجل غير أنه كان في عينيها بريق. هذا البريق وحده هو الذي أجابني مراراً.

– أما أنا فقد أجابني مراراً. ظننت أنها ستدق علينا الباب ذات مساء عندما يكون أخوها قد خرج إلى الحانة المجاورة لشرب بيرتين كما هي عادته كل مساء.

أخرج لطيف سيجارة. تردد في اشعالها. نظر إلى الجدار. بدا كما لو كان يتتبع الموسيقى الهادئة المنبعثة من المذياع. كان غائباً عن العالم. تصورها وهي تغسل الأطباق القذرة المكدسة في المطبخ. أو تصفف الكتب المبعثرة على البلاط. نظر إلى الكتب والمجلات وهي ملقاة أرضاً. لم يكونا يملكان مكتبة، بل كانا يملكان إهمالاً وكسلاً لا حدَّ لهما. موظفان مبتدئان يسكنان غرفة واحدة ويقتصدان ما أمكن. لكنهما في الواقع لم يقتصدا شيئاً لحدّ الآن.

أشعل لطيف سيجارته.. في حين كان محسوس وهو ممدد على بطنه يتصفح إحدى المجلات ويتتبع اللغط خلف الجدار، قرب الباب.

قال لطيف:

– كم كانت جميلة! هل تعرف أني أحبها وأن ذلك لم يخطر لي على بال في السابق.

أجاب محسوس:

– هل أنت أحمق؟ رجل حي يحب امرأة ميتة!

– أعتقد أنها لم تمت. إني أتصورها الآن وهي تبتسم. أتصور عينيها تشعان.

– نستطيع أن نتصور ذلك جميعاً. لكننا لا نستطيع أن نحب الأموات. أقصد ذلك الحب الجسدي.

– إنك لا تفهمني. ليس ضرورياً أن يكون الحب مقترناً بالجسد.

– من يبتسم؟ من يخجل؟ من تبرق عيناه؟ هل هي الآلهة أم البشر؟

طوى محسوس المجلة. وقف وأطل من النافذة. طلب من لطيف سيجارة. غادر الغرفة إلى التواليت. أتت من هناك رائحة قذارة. تشمم ذلك بتقزز من كوة التواليت سمع الناس يقدمون التعازي. سمع رجلاً يقول لأخي الفتاة:

– لو بقي أبوك وأمك على قيد الحياة لماتا من أجلها. كانا يحبانها كثيراً. كانا يحبانكما كثيراً.

فهم محسوس أنهما يعيشان بلا أب ولا أم. وتخيل أن دور الشاب قريب كذلك هل تكون الأسرة قد نزلت بها لعنة الموت؟ زرَّر سرواله وعاد ليقول للطيف.

– هل تعرف يا لطيف أن والديهما قد ماتا من زمان؟

– وبعد؟

– سوف يأتي دور الشباب كذلك.

– متى كنت تتنبأ بالغيب؟ هل تستطيع أن تقول لي متى ستموت أنت؟ اسمع. لقد خطرت لي فكرة. سنذهب لنعزيه في وفاة أخته.

– ولكننا لا نعرفه. ليست لنا علاقة به.

– إنه جارنا.

فكر محسوس قليلاً. دار على نفسه في الغرفة. فكر قليلاً ثم قال:

– يا الله! لنذهب.

بدا لهما الباب مفتوحاً على بعد أربعة أمتار من باب غرفتهما ارتفع اللغط أكثر. مشى محسوس في المقدمة وتبعه لطيف بخطوات مترددة. اقتحما الغرفة. هناك مجموعة من المعزين. لم ينتبه لهما أحد. ظلا واقفين مشدوهين. قال لطيف:

– إني لا أعرف كيف أعزي. إذهب أنت الأول.

لاح لهما الشاب وقد بدا عليه تعب كبير. كان يتحدث إلى شخص متقدم في السن، يبدو أنه هو الذي سمع محسوس حديثه من كوة التواليت. رآهما الشاب وتعرف عليهما. وقف متخاذلاً واتجه نحوهما. مدَّ محسوس يده وصافحه ثم عانقه وهو يقول في صوت خافت:

– البركة في رأسك. نحن جيران. هل تعرفت علينا؟

أجاب الشاب بصوت هادئ:

– نعم.

ومدَّ يده ليصافح لطيف وتعانقا. اغرورقت عينا لطيف بالدموع. وبدت له الابتسامة والعينان المشعتان. ارتجف. لم يعرف ما يقول. لكنه بذل مجهوداً قوياً حتى تخرج الكلمات من فمه:

– البركة في رأسك. أختك كانت... إني، إني... أحبها.

– شكراً. لقد كانت طيبة. إنها تستحق ذلك وأكثر.

رأى الشاب معزياً آخر، اتجه نحوه. اضطرب لطيف. تصبب عرق قوي من جسده، أراد أن يتحرك فلم تقو رجلاه على المشي. ثم تهاوى على أقرب كرسي إليه.

حمار الليل يضرب سكيرين

توقف بنسليمان في الظلام، ومد يده ليمسك بذراع آيت موح كي يجنبه السقوط في حفرة أمامه. كان هذا الأخير إلى حد ما أعشى. ورغم أن الظلام لم يكن كثيفاً لامتداد ضوء المصابيح البعيدة إليه، فإن آيت موح لم يستطع أن يرى شيئاً. ولو كان الجدار القصير الموجود قبالتهما مطلياً بلون آخر غير الأبيض لما استطاع أن يراه.

قال بنسليمان:

– هل ضربك حمار الليل؟ إنك لم تعد ترى ما أمامك.

– أنت تعرف أن بصري ضعيف. لماذا تتكلم مثل والدتي؟ هل رأيت في حياتك حمار الليل هذا الذي تتحدث عنه؟

قال بنسليمان:

– لا يهم. رد بالك. لقد اقتربنا من السور الآن. أعطيني الزجاجتين حتى لا تتعثر فتكسرهما.

تحرك آيت موح قليلاً إلى الوراء، وحاول أن ينظر يميناً ويساراً. ثم مد يده إلى حزامه وأخرج زجاجتي النبيذ اللتين أصبحتا دافئتين ما بين سرواله ولحمه. تناول بنسليمان الزجاجتين فاصدمتا ببعضهما. وخشي أن تتكسرا. مشى بخطوات حذرة نحو السور القصير. ولما اقترب منه كان آيت موح ما يزال يفتش عن شيء في جيوبه. وضع بنسليمان الزجاجتين فوق السور، ثم اعتمد بكفيه وقفز إلى فوق، لكن الأسلاك الشائكة آلمت جسده وأصدرت زنيناً خفيفاً. ضغط على سلك بيده وحاول أن يدخل جسده بين سلكين، متجنباً ألا يمزق السلك الفوقي ثيابه. نجح في ذلك وتدلى إلى تحت، ثم استعاد الزجاجتين، وذهب بالقرب من إحدى عربات السلع المنتشرة فوق خطوط السكة التي تشكل شبكة على هذا الجانب من أرض الميناء. وقف ينتظر آيت موح وهو يلهث. وظهر رأس هذا الأخير في الضوء الخافت للمصابيح، ثم ظهر جسده كله فوق السور، وقال بنسليمان لا بد أن هذا الأعشى سيترك كل ثيابه معلقة على تلك الأسلاك ذات الرؤوس المدببة الحادة. لم يقع شيء من هذا. قفز آيت موح وتوجه مباشرة إلى حيث ينتصب جسد رفيقه. ظلا صامتين وهما متقابلان. كانت أفكار خاصة تدور في رأس كل واحد منهما. المهم أنهما يشعران الآن باطمئنان، فهما في مكان مريح وأمين. لن يضايقهما شرطي. وقال آيت موح:

– أعتقد أننا نستطيع أن نشرب الآن بحرية.

قال بنسليمان:

– لا تستطيع تقدير مدى حسدي لأولئك الذين يشربون في البارات الآن، إنهم يستطيعون أن يبصقوا في وجه أي شرطي.

– لو كنت غنياً مثلهم لاستطعت أن تفعل نفس الشيء. إن ثمن زجاجتين في الخلاء يعادل ثمن ثلاثة كؤوس. وأنت لا تسكر بكأس ونصف.

لم يكن بنسليمان يستمع لآيت موح، لأنه أصبح الآن خلف عربة مكعبة سوداء، مجوفة من فوق. سمع آيت موح شرشرة البول ففتح أزرار سرواله وفعل مثل بنسليمان. رائحة البول اختلطت برائحة نفايات السفن التجارية، ومراكب الصيد المتجمعة في جناح آخر من المرسى. الأضواء القليلة المنبعثة من الصواري والكوات تنعكس على الماء، لكن الضوء لم يكن ليصل إلى هنا، فالعربات المنتشرة فوق شبكة الخطوط الحديدية المتداخلة تمنع من وصول الضوء إلى المكان. واختار بنسليمان بقعة نبت فيها حشيش صلب، بالقرب من الماء، وجلس هناك. تبعه آيت موح وهو يتكلم بصوت حاد وغير مفهوم، جلس بجانبه وأخرج من جيبه علبة ياوورت وأخذا يصبان لبعضهما فيها وقال بنسليمان:

– الآن نستطيع أن ننام بحرية هنا.

– يجب أن نسكر أولاً حتى ندفأ.

وقال بنسليمان:

– لو كان عندنا بيت!

رد آيت موح:

– لا تفكر في هذا. لم يكن لنا بيت إطلاقاً ولا يمكن أن يكون.

– لا شيء بمستحيل. في صحتك!

وأفرغ علبة الياوورت في جوفه. تقزز ومسح فمه بظهر كفه. كانت نسمات خفيفة تهب من جهة البحر. وسمع عن قريب صوت اصطخاب الأمواج، وقهقهة بعض البحارة المخمورين. ثم غطى على هذه الأصوات جميعاً صفير قطار قادم. وقال آيت موح:

– أتمنى أن لا تداهمنا الشرطة هنا.

– لا تخف. كن مستعداً لشهرين سجناً على الأقل.

– أخشى ذلك. لكن الحياة تمضي رتيبة بلا سجن.

– بالنسبة لأمثالنا، السجن راحة وانفتاح.

– يمكن أن يكون ذلك بالنسبة لك وحدك.

– اسكت يا حمار.

– الحمارة هي أمك.. اسكب كأساً أخرى.

صوت القطار يقترب منهما. وفكر آيت موح في أمه التي تكرر عليه دائماً ما يفعل به صوت حمار الليل. إنه يضلله ليلاً، فيضيع الطريق المؤدية إلى كوخهما القصديري بفعل السكر. لكن والدته لم تكن تعرف أنه يشرب ذلك الشيء الحرام، تعتقد فقط أن حمار الليل متمكن منه، وحاولت مراراً أن تكتب له تميمة عند كثير من الفقهاء، لكنها لم تفلح. فقد ظل حمار الليل يلازمه، وأحياناً حتى النهار. وكلما التحق بعمل. سرعان ما يطرد منه.

عندما سمع آيت موح صفير القطار للمرة الأخيرة. قال لبنسليمان:

– سوف يكتشفوننا.

– إن رجال الديوانة نائمون.

– هل تعتقد ذلك؟

– وحتى رجال الشرطة.

– والمسافرون؟

– إن هذا القطار أعمى خاص بالسلع. إشرب.

وأفرغ له زجاجة النبيذ الرخيص في علبة الياوورت:

– في صحة شاربي البارات.

– في صحتك.

كانت الساعة حوالي الحادية عشرة ليلاً. والسماء تنذر بصحو حقيقي غداً. لكن الظلام مع ذلك منتشر، لا تبدده سوى تلك المصابيح القليلة الباهتة المنتشرة خلف السور. وسمع بنسليمان موسيقى منبعثة من مكان ما، تبين فيما بعد أنها قادمة من جهة المراكب. كانت ترتفع وتنخفض لتصمت في أغلب الأحيان. تصور أن سكيراً مثلهما هو الذي يعالج جهاز الراديو.

مر القطار بسرعة دون أن يحفل بهما. وسمعاه يتوقف على بعد كيلومتر تقريباً منهما. وسمعا أيضاً، على الأثر، أصواتاً آدمية ضاعت في الليل. وقف آيت موح، وأخذ يبول بالقرب من رفيقه، نهره الآخر، وطلب منه أن يبول جالساً لأن الكلب وحده هو الذي يفعل ذلك وهو واقف لكن الآخر لم ينتبه له، وزرَّر بنطلونه.

وعاد ليقول:

– إنه دوري، هات كأساً أخرى.

أفرغ بنسليمان من الزجاجة الثانية حتى اندلقت الخمر على علبة الياوورت، وعلى أصابع رفيقه. ثم شرب آيت موح نصيبه دفعة واحدة. ودندن بلحن بربري مردداً بعض الكلمات التي لم يفهمها بنسليمان. مشى بعيداً، وأخذ يتسلق العربة المجوفة السوداء الرابضة على بعد أمتار منهما، فسمع صوت طنين تردد في الليل. صاح بنسليمان:

– يا كلب! هل ضربك حمار الليل. إنهم سيكتشفوننا. دعنا نسكر.

أفرغ لنفسه في علبة الياوورت. وتلذذ بالجرعة الأولى. ثم دلق كل شيء في جوفه. أخرج سيجارة رخيصة جداً من نوع الفافوريت وأشعلها. اتكأ على كوعه الأيسر، وصرخ في وجه آيت موح حتى يكف عن سكره وعربدته. لكن آيت موح لم يكن يستمع له. مشى نحو المرفأ، ووقف يتأمل الضوء المنبعث من مراكب الصيد، ومن البواخر، والمنعكس على صفحة الماء المتلألأ.. وتصور الأسماك وهي تقفز فوق سطح الماء. فكر أن يتراجع خطوتين إلى الوراء، ثم يقفز إلى المركب الذي أمامه، حتى ينهي سكرته مع الصيادين. وعندما تراجع إلى الخلف اصطدم بجسمين آدميين. أمسكاه من ذراعيه.

– مع أي رايس تشتغل؟

أخذ يتمتم.

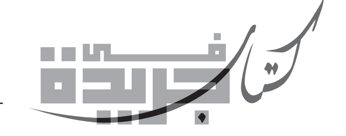
– هات ورقة التعريف.

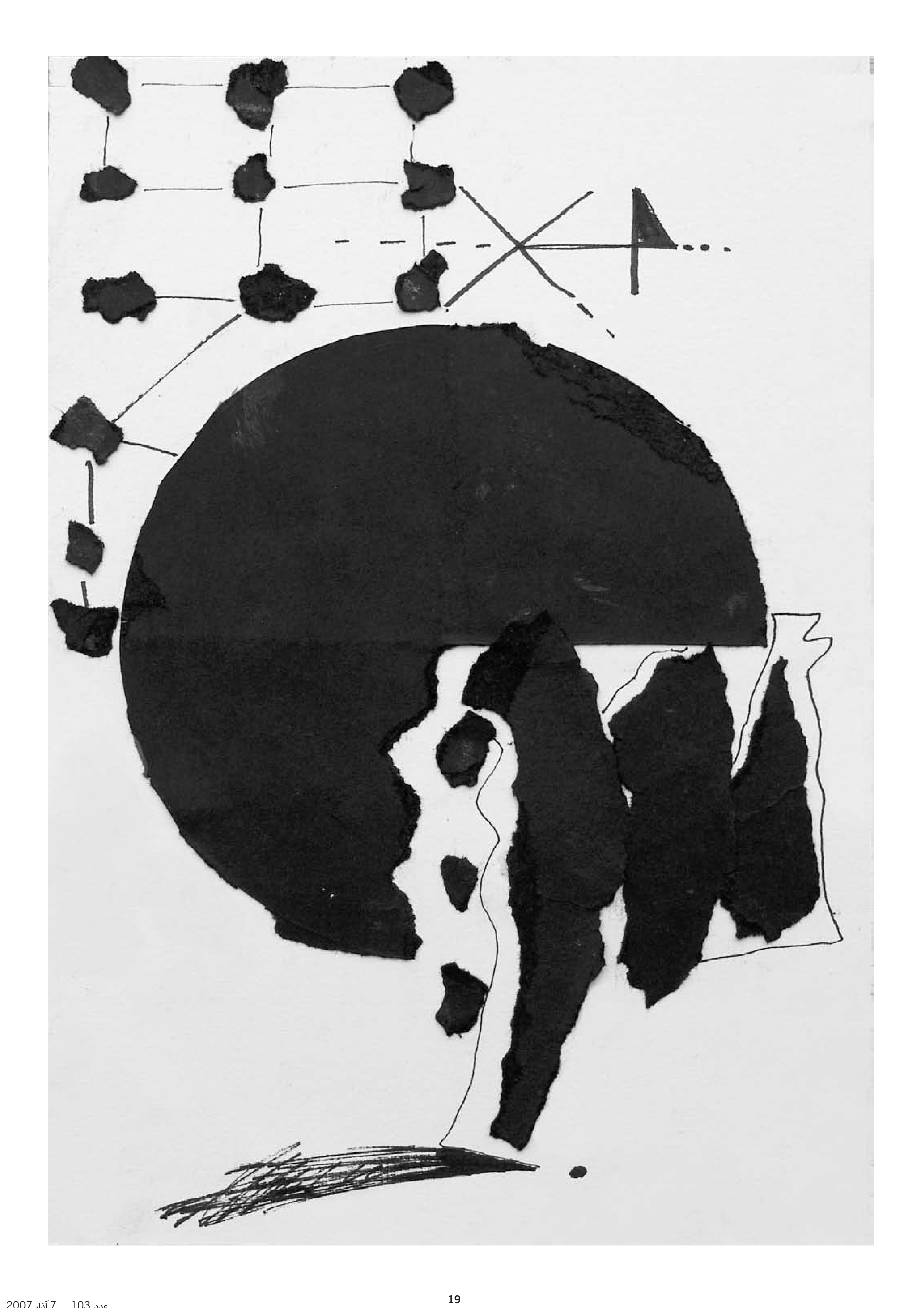
أخذ يتمتم أيضاً.

كان الرجلان ينتميان إلى عمالة البيضاء. أخرج أحدهما شيئاً من جيبه لم ينتبه آيت موح في الظلام. أخذ يصرخ:

– لست أنا. أنه هو..

رفع بنسليمان عينيه في الظلام ورأى ثلاثة أشباح تتدافع. ترك ما تبقى في الزجاجة وجرى نحو السور. تسلقه بصعوبة. وعندما وضع كفه على سلك شائك انغرزت إحدى أسنانه فيها. تحمل كل شيء، وبذل مجهوداً للنجاة بنفسه. أدخل جسده بين سلكين فعلقت بعض الأسنان بثيابه. لم يهتم بذلك. هوى إلى الأرض تاركاً بعض الخرق معلقة على السور.. سقط على كفيه وركبتيه. تنفس بسرعة وبعمق. وعندما حاول أن يقف وجد ثلاثة أشخاص بثيابهم المتشابهة وقبعاتهم المستديرة يحيطون به، وقد وضع أحدهم يديه على خاصرتيه، وقد أفرج ساقاه.





هياكل عظمية

قالت الزوجة:

ستأخذ ضربة شمس.

وقالت الحماة. وهي تحاول أن تمضغ سندويش البطاطس المقلية بما تبقى لها من أسنان:

– سيحصل ذلك إذا لم يضع طربوشه فوق رأسه.

كانت حرارة الشمس قوية بالفعل. غير أنه ليس متأكداً من أن ذلك سيحصل له. لأنه لم يسبق له أن تعرض لضربة شمس. أو هو لا يذكر أنه تعرض لها ذات يوم.

حرك قدميه الخارجتين عن مستطيل الفوطة فوق الرمل. وشعر ببعض الحبات تدغدغ ما بين أصابعهما. نظر إلى الحماة وهي تمد يدها النحيلة ذات العروق البارزة إلى زجاجة «كوكا» المثلجة أعجبه أن يتأمل الطريقة التي تصب بها السائل الأسود في فمها. أمعن في الأمل. تخيل السائل مثل أفعى سوداء صغيرة طرية الجسد تنسرب في حجر. تخيله أيضاً خيطاً أسود. تخيله زفتاً ثم لم يعد يتخيل أي شيء اختلطت صورة الخيط بالزفت بالأفعى بالسائل. ابتسم وحرك إطار نظارتيه فوق أرنبة أنفه. كررت الزوجة:

– ستتعرض لضربة شمس.

قال: – الجو لطيف.

لم يضف شيئاً. ولاشعورياً أخذ ينظر إلى المنديل المشدود فوق رأسها. ألوانه زاهية. كثيرة. تشكل مساحات هندسية متقاربة ومتباعدة. ومتداخلة أحياناً فيما بينها. وعندما يتحرك الرأس تتغير الألوان. تفقد بعضاً من نوعيتها تحت أشعة الشمس. قذفت فتاة مراهقة قدميه بالكرة. لم يتحرك. ولم يحاول أن يرد الكرة. ومن تحت النظارة دائماً تشهى ذلك التناسق البريء – لجسدها. نقل بصره إلى زوجته. فلاحظ أن ملامح وجهها التي يعرفها تغيرت. أخذت أبعاداً أخرى. استطال الوجه وبرز الأنف واتسعت العينان حتى أصبحتا مثل كهفين مظلمين عميقين. وسمعها تقول:

– لقد كثرت المراهقات. أنظر كم هي قبيحة!

لكن الحماة لم تهتم لما يدور حولها ابتلعت آخر قطعة من البطاطس وأردفتها بآخر جرعة. وعندما أنهت المضغ أحدثت أصواتاً صادرة ما بين اللسان واللهاة. وقفت ومشت حافية فوق الرمل الحار تجاه بعض القياطين التي تتجمع

تحتها نساء مثلها يهيئن الشاي أو يأكلن باستمرار. أو يغتبن جاراتهن. أو يتحدثن فيما لا يعنيهن. مشت بتباطؤ وحذر شديدين وهي تحاول إنزال ثوبها الخفيف الذي تلعب به الريح. وبدت له هيكلاً عظمياً نحيفاً تخيل عظامها تطقطق. ثم هي تنفك. وتنتشر بيضاء أو مدماة على الرمل. وأزال النظارتين. وتابع بعينيه الفتاة التي تلعب الكرة. جسد متناسق حقاً: بريء. يتطاير شعرها الأسود الأملس وينتشر مثل مروحة خلفها وحول رأسها. ويندلق إلى الأمام عندما تنحني. يندلق بشكل عمودي ثم يستعيد وضعه. أتى شاب من خلفها وصب حفنة رمل على ظهرها. ثم دفعها في مكان من جسدها يدل على أنها تحرم عليه شرعاً. وكانت الزوجة تحاول إحكام شد المنديل على رأسها. فتحت جراباً خلفها. وأخرجت نظارتين شمسيتين ووضعتهما ربما لكي تخفي اتجاه نظراتها. تلصصت أول الأمر على زوجها. ثم أخذت تتابع الفتاة. ومن مكان ما أخرجت كمية من الحمص المقلي وأخذت تلقي بالواحدة تلو الأخرى في فمها وهي تمضغ ببطء. مستعينة بلسانها الذي ينفخ الحنك بعد الحنك. طاردت الفتاة الشاب المحرم عليها. غير أنه التجأ إلى الماء ورشها بسرعة فتراجعت. فاجأتها الكرة قادمة من لامكان. صدمتها فسقطت جالسة على الرمل. لم تتحرك وظلت تذري الرمل من حولها وهي تقول كلاماً يبدو أنه احتجاج. أمعن هو في تأملها أكثر. وأمعنت الزوجة كذلك في تأمل حركات الفتاة وحقدت عليها. خصوصاً عندما رأت صدرها وقد اندفع إلى الأمام. كانت الفتاة قد كونت بنصفها الأعلى وذراعيها المتصلبين المغروسين من الخلف في الرمل مثلثاً ذا نتوء. في زاويته العليا رأس يتحرك في كل اتجاه. تصدر عنه ضحكات استهتار أو براءة. لم يتكلم. بل فكر أن الزوجة تتابع كل شيء حتى ما يجري داخل رأسه. ولم يكن يعرف بالضبط ما يدور برأسه. إنه فقط ينظر إلى الماء وإلى الكرة وإلى الفتاة. العالم الآخر. حتى زوجته ربما لم يكن يراها. إنها حاضرة ويمكنها أن تلمس هذه الفوطة أو هاتين النظارتين. لكنه لا يراها. وربما أحست أنه لا يراها بالفعل. وضعت يدها على كتفه ثم على عنقه. مرت برؤوس أصابعها على بعض الشعيرات الملساء في جسده. ثم قال بدون أن ينتبه:

– لماذا لا تسبحين؟

– أريد فقط جمع الأعشاب هناك.

وأشارت جهة البحر.

– أنظر كم هي كثيرة! وطافية فوق الماء!

– وأيضاً فوق الأرض. الأمواج تخلفها ثم تنسحب إلى الوراء.

بساط أخضر من الأعشاب البحرية يتحرك فوق الماء. يتوسط خضرته سواد نفايات السفن. كانت الخضرة مثل شبكة ممزقة في كثير من الأماكن. غير متصلة بالخضرة التي تكومت على الأرض وغاصت في الرمل المبتل. واحتضنت قواقع صغيرة مجوفة لامعة. كم كان معجباً بتلك القواقع! معجباً بغطاء الحلزونات البحرية. ومعجباً أيضاً بأشكال أخرى هي من غير شك بيوت لحيوانات أخرى ماتت أو ابتلعتها أسماك كبيرة. كم كان يخاف أيضاً الأسماك الكبيرة التي لا يعرف من نوعها إلا ما يراه مصوراً في الكتب أو المجلات. (هذا الوهم: يسبح ثم يغطس. ثم تتعطل عضلاته. يهوي إلى القاع فيصبح بسهولة فريسة لمثل تلك الأسماك. إنها أشبع ميتة خشيها طيلة حياته).

وقفت الفتاة واستأنفت اللعب بالكرة. تحركت جهة الماء حتى علقت الأعشاب الخضراء بقدميها فطوحت بها بعيداً. استمر في النظر إليها. لم يحدد أي موقف عاطفي منها. وأزاحت الزوجة النظارتين عن عينيها وتظاهرت بمسحهما. وقالت وهي لا تنظر إليه:

– إذهب لتسبح.

– إن أمك ستضيع المكان، إلى أين ذهبت؟

– لا تهتم بها ستعود على كل حال.

سكت وطرد بعض الهوام بقدميه. طنت ذبابة حول رأسه. وابتعد الطنين شيئاً فشيئاً. وعادت إليه صورة السائل الأسود وهو يتحول بالتدريج بين التراقي والجوف لتمحي الصورة من جديد. أو أنها لم تمح نهائياً. بل استمر التحول. اندمجت الصورة الأولى في صورة العظام وهي تطقطق وتتفكك لتنتشر بيضاء أو مدماة فوق الرمل. لكن الفتاة قذفت العظام بالكرة، فتحولت الكرة إلى عظم، بل إلى جمجمة. ذهبت الفتاة إلى الجمجمة وأمسكتها بيديها وألقت بها إلى الشاب المحرم عليها شرعاً. لقد أصبحت الفتاة من آكلي لحوم البشر، الذين قرأ عنهم كثيراً. وتحسَّس رأسه. اصطدم بالعرق في جبهته. وتأكد من أن رأسه ليس عظماً أبيض. وأن الجلد ما يزال يغطي تلك الجمجمة. وقف وتمطمط في الهواء الحار وأخذ يركض جهة الماء. داس فوق الأعشاب الخضراء، وأحسَّ بوخز القواقع تحت بطن قدميه، لكنه لم يأبه لذلك. شعر بفرحة عارمة، واستطاب برودة الماء. ثم ألقى بجسده على أول موجة حقيقية تواجهه. طشطش الماء من حوله، إلا أن الطشطشة ضاعت عندما سدت أذناه، وتسرب إليهما الماء. بالقرب منه كانت مجموعة تتدافع بالأيدي ويتساقط بعضها كأشياء ثقيلة فاقدة للتوازن. فقد هو الآخر توازنه، عندما دفعته موجة من الخلف، فتكور ولعق الرمل في القاع. بصق وغسل وجهه بسرعة برشات خفيفة. ثم وقف فوق الأعشاب البحرية، وقذف ببعضها في غير اتجاه. أعجبته قدرة الفتاة والشاب على الاستمرار في اللعب. وعندما طاشت الكرة نحوه أسرع إليها وقرر أن يشاركهما. بدا عليهما الاستعداد الكامل لقبوله كي يدخل في اللعبة. دخلها فعلاً وأصابته نشوة. حتى الفتاة أصابتها نشوة أكبر، لأن دخول شخص جديد في اللعبة يعطيها إمكانية أكبر لتنويع طريقة اللعب. ورأى زوجته واقفة بدون منديل فوق رأسها وهي تتمطمط مثلما فعل هو قبل لحظة. أدرك بالتقريب نيتها. ثم رآها تركض جهتهم. مرت كالسهم واخترقت الماء وأخذت تضرب بذراعيها بلا تنظيم. كانت تخبط الفضاء والماء والزبد وكل شيء. وعندما كان ينظر إليها وهي تدخل وسط حلقة المتدافعين بالأيدي. ضربته الكرة على قفاه. فسعل سعلة خفيفة أضحكت الفتاة والشاب معاً. ضحك بدوره وأعاد لأحدهما الكرة بقوة. وقام بحركات عشوائية. تمدد جسده في حيز أكبر من الهواء. صار مثل هلام، مثل حيوان خرافي طري. أصبح الحيوان يتموج على حفافي في نهاية الزبد، زاحفاً. منتشراً، مستطيلاً، حتى أنه أفزع كل الناس العراة في المكان، لكن الحيوان الهلامي، وقد أحس بدغدغة الماء، أخذ يتقلص شيئاً فشيئاً. ثم عاد إلى وضعه الطبيعي، وتلقف الكرة من جديد. أصر على أن يمضي في اللعبة وحده، مع الفتاة والشاب. لكن زوجته التحقت بهم. شعر بها عندما أمسكته من الخلف. بيديها الباردتين. ارتعش، التفت إليها. ابتسمت في وجهه ابتسامة خيِّل إليه أنه يعرف معناها. اقترحت عليه أن تشاركهم. هزَّ رأسه هزة تعني الموافقة والرفض معاً. وقالت له:

– اذهب لتأكل الحمص.

– لا أحبه.

سكتت لحظة وهي تنظر إلى الكرة تقفز في الفضاء الفسيح من جهة أخرى. اقتربت منه.

– لم تكن تحب أبداً اللعب بالكرة.

– ليس دائماً.

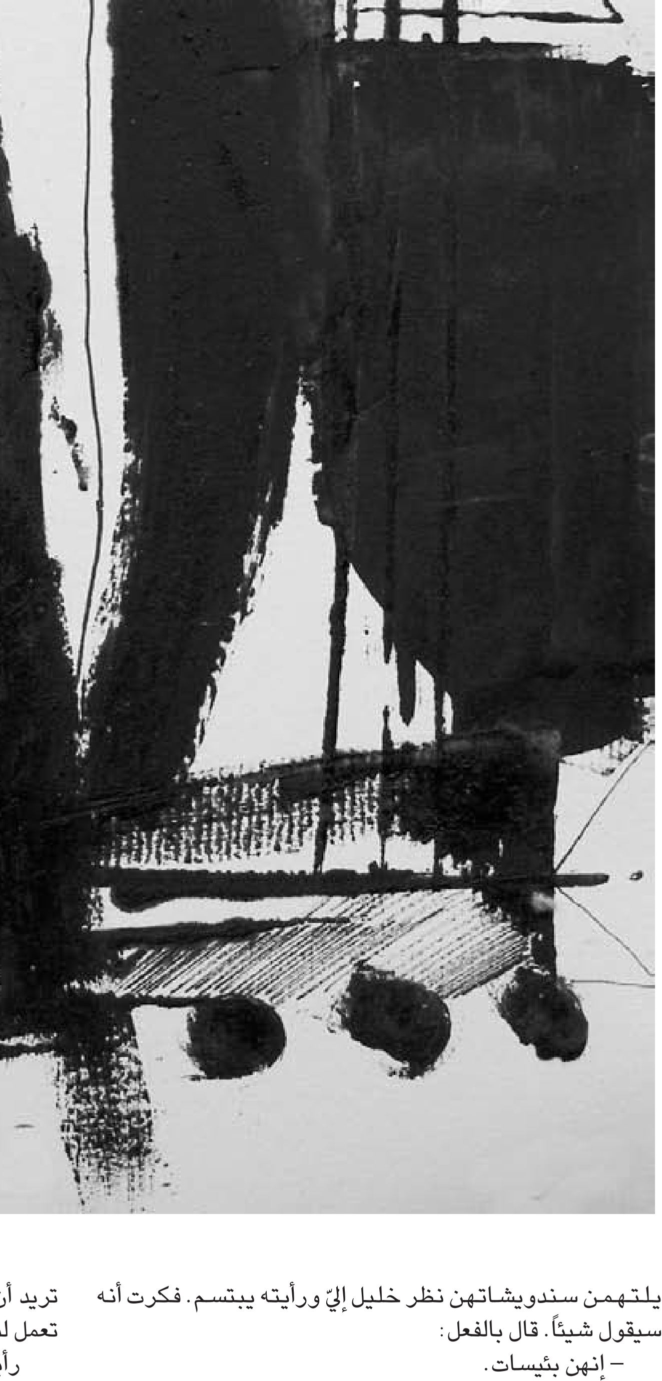
– إذهب واشرب بيرة في البار.

– ليست عندي رغبة.

– عندك رغبة في أن تلعب مع تلك.

سمع ما قالت. ولكنه تظاهر بعدم الفهم. ورأى بعيداً الحماة وهي تخطو ببطء دائماً جهة كومة الثياب. فكر في أن يقول للزوجة أن أمك قد عادت، إلا أنه عدل عن ذلك. ثم جرى متسلقاً منحنى رملياً حيث اصطفت دكاكين البقالة والمقاهي. وقف وهو يلهث ليستعيد نفسه الأول. نظر إلى البار شبه العاري من الأمام ثم أخذ له مكاناً بين الواقفين. كانت زوجته تخطو باتجاه الحماة وقد تدلى ذراعاها حتى الأرض، وتهالكت على نفسها جالسة. تصورها وهي تخرج حفنة جديدة من الحمص المقلي. اتكأت على أمها لتقول لها شيئاً. دلت الحماة رأسها جهتها لتسمع بوضوح. أصبحتا هيكلين عظميين عاريين تحت الشمس. تفكك الهيكلان، وتفككت الهياكل الأخرى على التوالي. سمع طقطقات العظام. بدأت ببطء وخفوت. أخذ الصوت يرتفع شيئاً فشيئاً. طقطقات وأصوات تكسر. ارتفع الصوت وارتفع حتى ملأ الفضاء من حوله. ضايقه ذلك وأشعره بدوار. أخذ يلتفت حوله. رأى الناس يتعرون وتكشط عنهم جلودهم. وتحسَّس جسده، فوجد الجلد ما يزال ملتصقاً في مكانه يتفصد عرقاً. أغمض عينيه وفتحهما ليتأكد من أن هذه الأشياء كلها ليست حقيقة. عاد كل شيء كما كان، فشعر بالراحة، وضع رأسه بين ذراعيه وسمع صوتاً بالقرب منه:

– لا شك أنك متعب. هل تريد أن تذهب إلى المرحاض لتتقيأ؟



العلبة والنجيمات

عندما أصبحنا وسط الحديقة العمومية الصغيرة. وجلسنا على المقعد الحجري البارد رفعت عيني لأتأمل الأشجار وهي ممتدة في الفضاء طويلة حتى لتكاد تبدو أنها بلا نهاية. بعض العصافير تثقل الأغصان النحيلة فتتدلى مثل عناقيد رمادية وملونة، بسط خليل الجريدة بيني وبينه على المقعد الحجري. ووضع فوقها علبة السردين. وقسم الخبزة وناولني جزءاً منها. ولما لم أنتبه لحركته الأخيرة نبهني إلى ذلك بلكزة في كوعي. فارق بصري الأغصان المثقلة. ونظرت إلى الطعام القليل بيننا. فكرت أن صورة الأسماك على العلبة مشهية أكثر مما بداخل العلبة. لم أكلف نفسي ذات يوم إحصاء عدد السردينات التي يحتوي عليها حجم من هذا النوع. كنت آكل فقط وقد أشعر باكتفاء أو لا أشعر به حسب شهيتي للطعام. أما الآن فقد بدا لي أن نصيبي الضئيل هذا لن يكفيني. ولم يكن في مستطاعي تقدير شعور خليل تجاه هذه الكمية القليلة من السردين. الوقت بين الثانية عشرة والواحدة. يؤكد ذلك وجود ثلاث عاملات في عمر الزهور يجلسن قبالتنا على المقعد الحجري. ووجود أخريين على مقعد آخر. كانت هناك فتيات أخريات فضلن أن يجلسن على الأرض وبينهن شاب في يده كيس من البلاستيك الشفاف يحتوي على سندويتشات البطاطس المقلية. قلت لخليل وهو مشغول بشق الخبز بأظافره:

– ننتقل إلى المقعد الآخر. بالقرب من الفتيات الثلاث. ما رأيك لو نشاركهن طعامهن ويشاركننا علبتنا؟

– لا شك أنك تمزح. هذه السردينات لا تكفي حتى لأقلهن شهية.

– لا تعتقد أني جاد. أعرف أن ثمن سندويش واحد مما يأكلن يعادل ثمن علبتي سردين.

أخذ خليل ينقل بأظافره الطويلة القذرة نصيبه من السردين إلى قطعة الخبز في يده. كان يفعل ذلك بأناة ويمرر إحدى أصابعه وسط قطعة الخبز بسرعة وصببت فيها ما تبقى دون أن أكلف نفسي إحصاء السردينات الباقية. والغالب أنها ثلاث. لم تكن مشكلتي الأساسية هي إحصاء ما يوجد داخل العلب ولكن مشكلتي هي الجوع. اليوم يغذيني خليل وغداً يعشيني جليل. اليوم يعشيني فلان وبعد غد فرتلان. وعندما لا يوجد في العالم خليل أو جليل فإني دائماً أظل متعلقاً بوهم أن أعثر على فلان أو فرتلان. اثنان فقدا كل شيء في الحياة إلا الأمل. لقد تعرفت على خليل في أحد البارات. عندما كنت لا أزال أحتفظ بقليل من النقود بعد طردي من وزارة البريد على اثر إضراب عنيف. أما هو فلم يكن يشتغل في أية وزارة أو أي معمل أو أي شركة. رسب في امتحان الباكالوريا مراراً رغم وعيه المتقدم وذكائه إلا أنه في النهاية فضل ألا يعيش مع العائلة لفقرها الشديد. فأخواته الثلاث محترفات. وأبوه يبيع النعنع والفلفل. عندما التقينا في البار لأول مرة. دفع عني ودفعت عنه. ثم أخذنا نتحدث عن النساء وعن الأغاني والتجنيد الإجباري. وقلت له أني لم استدع لأنني محظوظ وقال هو بأنه دفع رشوة فأعفي. ثم انتقلنا للحديث عن صعوبة الحصول على جواز سفر وتحدثنا كذلك عن أوربا وكيفية اغتيال المهدي بن بركة. وشتمنا الوضع القائم وطلبنا كؤوساً أخرى من الشراب حتى لم نعد نقوى على الوقوف. ثم استدعيته إلى بيتي الذي لم أدفع كراءه مدة سنة. وفضل على أثر ذلك أن يلازمني. قلت لخليل:

– إلى متى سنظل هكذا فقيرين؟

– إننا نحيا على كل حال. ليست حياة الرفاهية ولكنها حياة.

ونظرت إلى مجموعة الفتيات العاملات الشاحبات الوجوه وهن يلتهمن سندويشاتهن نظر خليل إليّ ورأيته يبتسم. فكرت أنه سيقول شيئاً. قال بالفعل:

– إنهن بئيسات.

– لكنهن أغنى منا.

– لقد كنت غنياً ذات يوم عندما كنت في وزارة البريد.

أي غنى ذاك؟! كانت الحوالة تتبخر في أول الشهر. الكراء والبقال والعائلة. والمومسات يأخذن ثمن جهدهن من أثاث البيت: فوطة منفضة. حذاء أو أي شيء آخر. خليل يعرف كل تلك الأشياء جيداً. لقد حكيتها له ولربما أخذت إحدى أخواته نصيبها من ذلك الأثاث. من يدري؟

أخذت أشعة الشمس تتسرب من بين الأغصان. لكن تلك الأشعة لم تكن قوية ولا حادة. ورغم ذلك فالعرق يتفصد من ظهري عند النخاع الشوكي. أوشك خليل على أن ينهي نصيبه من الطعام. توقف قليلاً عن المضغ وتجشأ. ثم تجشأ مرة ثانية. قلت له:

– هذه الغازات ستقتلك. لقد تفتت كبدك من فرط الشراب.

– وندرة الطعام.

– ما أروع تلك الأيام القادمة التي سنأكل فيها حتى الشبع. ونشرب فيها حتى الغيبوبة!

– إن شاء الله. عندما تلد البغلة أو يبيض الديك.

– إنك متشائم.

– لست متشائماً ولا أي شيء. ولكني رجل واقعي. إذا كنت تريد أن تأكل حتى الشبع وتشرب حتى الغيبوبة فما عليك إلا أن تعمل لذلك.

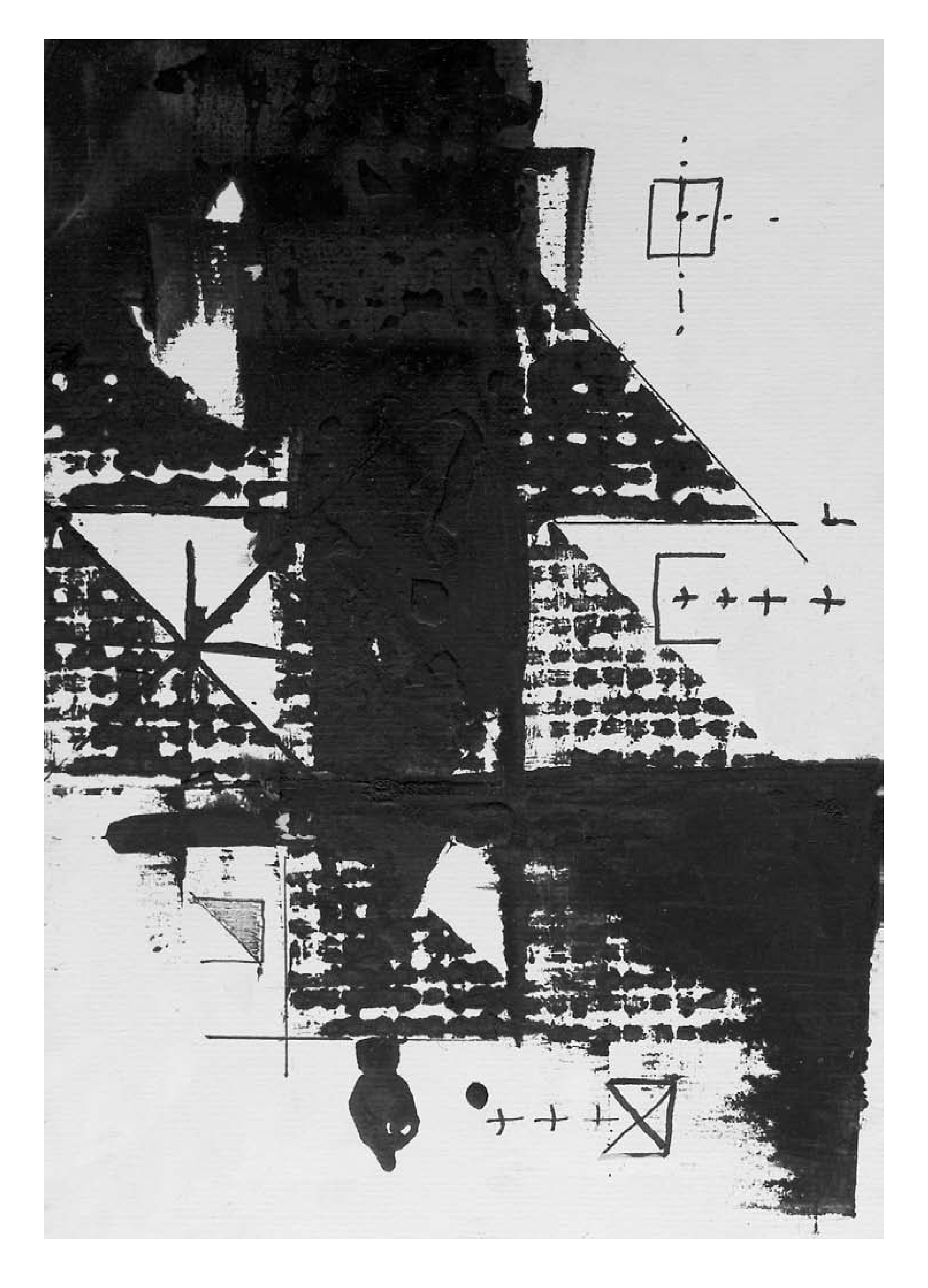
رأيت الفتيات وقد أنهين طعامهن يتراشقن بشيء وهن يتضاحكن. كانت إحداهن قد انفصلت عن المجموعة وظلت واقفة تحت الظل واضعة يدها عند خاصرتيها. مفرجة ساقيها.

قلت لخليل:

– إنها جميلة. أليس كذلك؟

– لا يمكنها أن تهتم بأمثالنا.

أخذ خليل يجمع فتات الخبز. وضعه في العلبة الفارغة ثم كوم الجريدة وألقى بكل شيء فوق نبات ضعيف أخضر ينمو بصعوبة فائقة. اقتحم الحديقة شرطي ورجل من القوات المساعدة غير مسلح. مشيا بهدوء واعتزاز كبير بالنفس. بدا الشرطي منتفخاً مثل ديك. شعرت الفتاة أنها مهددة في أمنها فانضمت إلى المجموعة حتى أبسط المتع ممنوعة أمام الشرطة. وبالرغم من الرزانة التي افتعلتها المجموعة فإن الشرطي اتجه نحوها. أخذ الحديث يدور بينهم. في البداية كانت الفتيات محافظات. لكن سرعان ما انطلقت الضحكات. استغل الرجلان الفرصة وبدأ يعوضان عن النبذ الذي يلحقهما وهما بدون لباس رسمي. تخيلتهما وهما يدفعان ثلث الحوالة للكراء والثلث الآخر للبقال وما تبقى للعائلة الفقيرة التي قد توجد في أية قرية نائية من الوطن. ومع ذلك فهما يبدوان الآن داخل اللباس الرسمي قويين وغنيين. أي غنى ذاك؟! لا شك أنه مثل الغنى الذي



كنت أعيشه وأنا موظف في وزارة البريد. كل الأفواه تتحدث دفعة واحدة. والضحكات تصدر متباينة القوة. نسي الشرطي رزانته المفتعلة ورأيت يديه تتحركان ببهلوانية إلى مكان تحت نهد إحدى الفتيات. تراجعت الفتاة قليلاً وهي تضحك. كادت أن تتعثر وتسقط إلى الخلف. في حين انهمك رجل القوات المساعدة في مغازلة فتاة أخرى.

قال خليل:

– لن يحصلا على واحدة. أراهنك. النساء لا يحببن الشرطة.

– من أدراك؟ أنظر كيف يبدين مسرورات.

أخرجت علبة السجائر التي أصبحت شبه فارغة. تناول خليل السيجارة وأشعل لنا بولاعة جميلة لا أدري من أين حصل عليها. وهو مصر على الاحتفاظ بها حتى في أحرج اللحظات المادية. في الواقع تشهيت الفتيات الجالسات والواقفات. وبالرغم من أنني لم أكن محظوظاً مع النساء فقد كنت أترك لخيالاتي المجال حتى أتنفس أكثر. سمعت خليل يزفر زفرة قوية. وفهمت أيضاً ما يريد. استمر الرجلان في مداعباتهما وقد تجاوزت تلك المداعبات وجهها البريء الأول. أصبحت الأيدي تلمس الأجساد. ثم بعض الأماكن الحساسة فيها. استمرت ضحكات النشوة أيضا. ولم يكن ذلك سوى دافع لتصعيد تنهداتنا. سمعنا خلف الحديقة باباً يخبط بعنف. ثم مرَّ من أمامنا ضابط شرطة يتبعه شرطيان بثيابهم الكاكية. كانت بعض النجيمات النحاسية تثقل كتفي الضابط وتتدلى إلى الأمام. توقفت الفتيات عن الضحك وهن خائفات. التفت الشرطي إلى الخلف. وتغيرت ملامح وجهه وهو يرى الضابط. أدى التحية. وكذلك فعل رجل القوات المساعدة. ظهر عليهما انفعال كما لو كانا متلبسين بأبشع جريمة. قال الضابط وهو يحك أنفه:

– هل تعتقدان أنكما في ماخور؟

قال الشرطي وهو يتعتع:

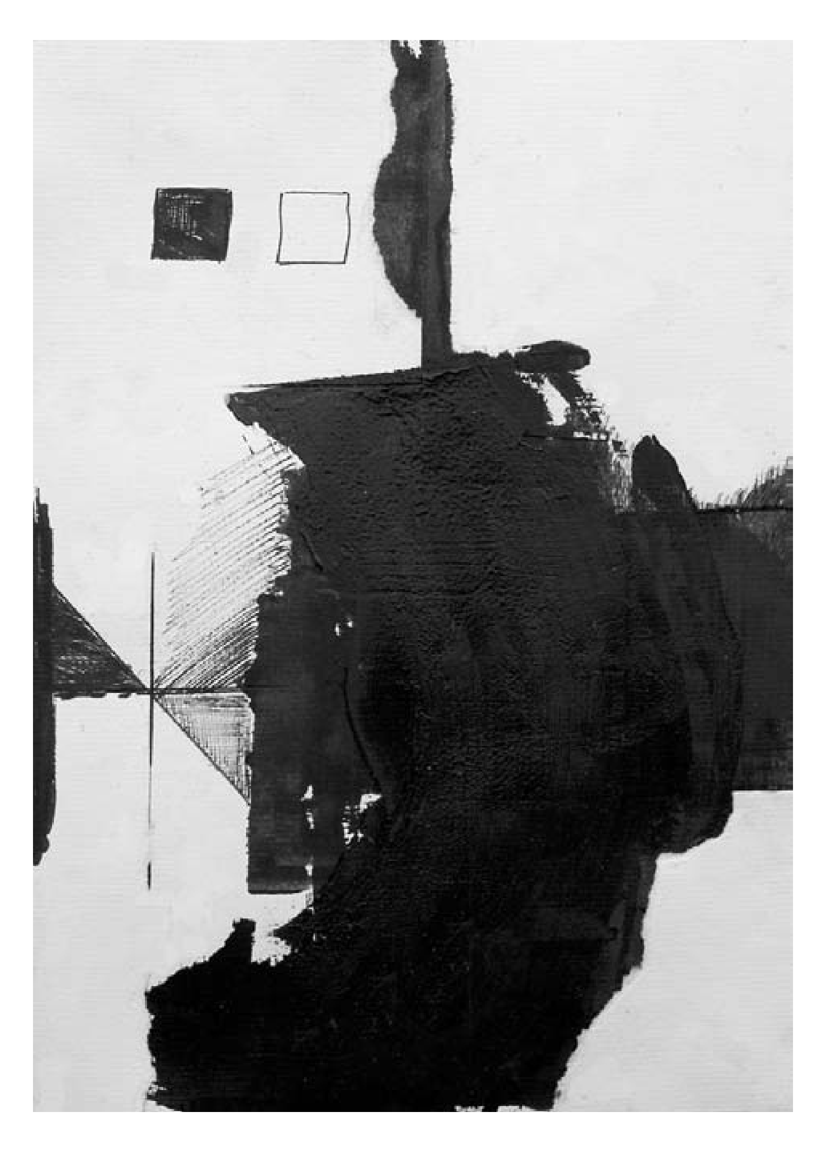
– لقد وجدناهم بالفعل يا سيدي كما لو كانوا في ماخور. هذه حديقة عمومية وليست ماخوراً.

– من هؤلاء؟

– ذلك الشخصان وهؤلاء الفتيات. كنا نطلب منهم أوراق التعريف.

بدا الارتياح التام على الضابط ثم تقدم منا الشرطيان اللذان كانا يتبعانه. طلبا أوراق التعريف. ماذا تفعلان؟ لا شيء. أخذت الفتيات العاملات يتباكين. كنا نتغذى يا سيدي. لا نعرف هذين الشابين. غير صحيح. هو الذي... قولي الحقيقة يا سمية.. هو.. لكن..

لم يحاول ضابط الشرطة أن يسمع أي كلمة احتجاج. دفعونا إلى السيارة. وركب الضابط بالقرب من السائق. كنت أرى كتفيه من خلال النافذة الصغيرة المشبكة مثقلين بالنجيمات النحاسية. وكان نحيب الفتيات المجهولات يزداد تصاعداً.



خلف النافذة

كانت سيارة الشرطة مرابطة في الجهة الأخرى من الشارع، قرب النادي الإيطالي. لمحتها (ك) فهرعت مفزوعة إليّ تخبرني بذلك. لم أفاجأ، لأنني رأيت السيارة من خصائص النافذة وهي في مكانها منذ ساعات. لم أرد أن أخبر (ك) بذلك لأنها كانت حاملاً، وخفت أن يؤثر ذلك على صحتها وعلى تكوين الجنين. لكن وقد اطلعت الآن على الأمر، قلت لها وأنا أهدئ نفسي:

– لا تخافي شيئاً. إنهم مثل الكلاب. سيظلون هناك حتى ييأسوا ثم ينسحبوا. قالت بخوف:

– أخشى الا يتم ذلك. إن أحدهم واقف خلف السيارة وينظر إلى النافذة باستمرار.

– قلت لا تخافي. فالأمر ليس على هذا الشكل من الخطورة. ثم إننا تعودنا على ذلك.

مع ذلك، رأيت ملامح وجه (ك) يتغير. أخذت تدور في مكانها دون أن تعرف ماذا تفعل. كانت تفتش عن شيء ربما. ولم أسألها عن ذلك الشيء الذي تفتش عنه. رأيتها تدور ذاهلة على نفسها، وقلت لها:.

– يمكنك أن تستريحي. هل تفتشين عن كرسي؟ إنهم مسمرون هناك منذ ساعات لم أرد إخبارك. عندما يتأكدون من أننا لسنا في البيت سينصرفون. الأمر ليس خطيراً إطلاقاً.

وقالت (ك):

– إني لا أثق بهم. هل الأمر يتعلق بمظاهرة الأمس؟

قلت:

– نعم. لكنهم لن يوقفوا سيل هذه المظاهرات والاضرابات المتوالية، حتى ولو تم اعتقال بعض الأشخاص.

شممت رائحة البصل قادمة من (ك). قلت:

– إذهبي وأكملي تهيئ طعامك. سأتغذى اليوم بشهية.

– أما أنا فلن أستطيع الأكل حتى ينسحب أولئك الغربان.

انسحبت (ك) إلى المطبخ، وجلست أنا على السرير أفكر. كنت أجوب الغرفة بخطوات بطيئة، متجهاً صوب النافذة أحياناً، وصوب الفراش أحياناً أخرى أجلس على حافته وأفكّر..

كان الأشخاص الستة في السيارة يرتدون ثياباً مدنية وعلى رأس كل واحد منهم طاقية باهتة، ويرتدون معاطف قديمة، من ذلك النوع الذي يباع في سوق الخردوات والذي تبعث لنا منه أمريكا بواخر كثيرة عنوة على الصداقة، مع – طبعاً – بواخر أخرى تحمل أطناناً من القمح المسوس الذي تعافه حتى الدواب. كان ذو الجثة الغليظة الذي يقف خارج السيارة، ينظر إلى النافذة بصبر وبلادة. رأيته يتجه إلى السيارة، ويطلب سيجارة من أصدقائه الجالسين في الداخل يناقشون – ربما – كيفية اعتقالي.

كنت متأكداً أن الأمر لن يعدو مجرد اعتقالي حتى تخف حدة المظاهرات العمالية والطلابية. فقد كانوا يشكون دائماً في أمثالي عندما تتأزم الأوضاع السياسية في البلاد. فيهرعون إلى اعتقال مائتين أو ثلاثمائة شخص ممن لهم سمعة سيئة ودوسيهات في مراكز الشرطة. لكن ذلك، في الواقع، لم يكن هو الحل. فقد كانت الاضطرابات تستمر دون أن يستشير المتظاهرون أحداً. كان كل واحد منهم يشعر أنه مذنب لأنه تخلف عن اللحاق بنا. لذلك فعنادهم يشتد، وتستمر المظاهرات هنا وهناك في مختلف المدن وفي مختلف الأحياء. ولا يقف في وجه ذلك حتى السيارات السرية الكثيرة المرابطة في كل شارع. فقد كان المتظاهرون يعرفون كيف ينظمون أنفسهم.

وقفت وذهبت بهدوء إلى المطبخ. وجدت (ك) متوقفة عن الحركة، جالسة على طبلة صغيرة وهي تبكي. ولما رأتني مسحت دموعها وتظاهرت بالثبات، لأنها خافت أن أنهرها. وقفت وأدارت ظهرها إليّ ووجهها صوب الصنبور، حيث تراكمت تحته أوان وصحون غير مغسولة. فتحت الصنبور وتركت الماء يشرشر فوق الأواني. وكانت تنظر إليّ خلسة بطرف عينها. قلت:

– لماذا أنت متأثرة. أنت تعرفين أنهم يأخذونني ويعيدونني إليك.

– لكني لن أصبر على ذلك. ستصبح أباً في المستقبل وسيشنقونك دون أن يهتموا بأبنائك أو يشفقوا عليهم.

– إنك تذهبين بعيداً. أين ذهبت أفكارك الثورية عندما كنا صديقين قبل الزواج؟

لكن يا (ج) الأمر يختلف الآن. سيصبح لنا أطفال. أنا لست متخاذلة. كما عرفتني سأظل. لكن هناك شيئاً يؤرقني لا أدري ما هو.

– ليست المشنقة على كل حال.

– سأذهب معك إليها.

قلت بغضب:

– هيئي طعامك. أنا جائع. لا تخافي إلى هذا الحد.

أمسكت أنفاسها ودلت يديها النحيلتين في الماء وأخذت تغسل الصحون وهي تذرذر الصابون البودرة عليها. تعلقت بيديها رغوة غير بيضاء تماماً.

انصرفت إلى الغرفة الأخرى المطلة على الشارع. ولم أحاول أن أنظر من النافذة. لقد كان عندي اطمئنان نفسي خاص، تجاه مواقف مثل هذه. ذهبت وتمددت فوق السرير. تناولت المنفضة وباكيت السجائر وقربتهما مني. أخذت أدخن وأتأمل تعرجات الدخان المتلاشية في فضاء الغرفة. وقلت: «لماذا لا أستمع إلى الموسيقى ولو





لآخر مرة». أدرت البيك – أب فسمعت خطوات (ك) سريعة، قادمة من المطبخ. قالت وهي تلهث:

– هل جننت؟ إنهم سيسمعونك.

– الأمر لا يعنيك. ثم إنه لا يجب أن تخافي إلى هذا الحد. عودي إلى المطبخ.

– اسمع يا (جـ)، يمكن أن يكون واحد منهم الآن خلف الباب.

– انك حمقاء.

– أرجوك، اخفض صوت البيك – أب.

فعلت، واجتذبت نفساً عميقاً من السيجارة. كنت أبتسم دون أن أدري حتى لماذا. ظللت أبتسم. اعترتني نشوة خاصة لم أعرف سببها، بل أخذت أقهقه، وقفزت من فوق السرير. أخذت أجوب الغرفة طولاً وعرضاً. شعرت أن الشخص الآخر في داخلي الذي كان يقهقه اعتراه ندم. ذهبت إلى النافذة. كانت السيارة ما تزال في مكانها، لكن الشخص الذي خارجها اختفى. حاولت أن أفعل شيئاً. عدت إلى السرير وتمددت. أشعلت سيجارة ثانية. كان صوت فيتزجرالد يملأ الغرفة بدفئه. كانت السعادة تغمرني مثلما لم يحصل لي من قبل. كنت متيقناً أنهم سينصرفون عندما يتعبون ربما لم تعطهم الأوامر لمهاجمة بيتي.. لكن من يدري؟ فقد ينتظرون فرصتهم المناسبة. لا أحد يعرف ما يدور بتلك الرؤوس المخشبة التي آلت على نفسها الكتمان والمكر. وتخيلت أنهم يفعلون نفس الشيء الآن بالنسبة لرفاق آخرين، في أماكن أخرى. وعندما هيأت (ك) الطعام تغذينا، ولم تكن لها شهية، بل كانت تذهب بين فترة وأخرى إلى النافذة، تنظر إليهم وتنظر إليّ. ورغم محاولاتي المتكررة باقناعها أن ذلك لا يشكل خطراً، لم تقتنع بل كانت صامتة، حائرة، مترددة، وقلت لـ (ك):

– اسمعي يا (ك) اذهبي واستريحي قليلاً. أنا شخصياً سأنام.

لكنها لم تلب طلبي. بل ظلت تمشي بين النافذة والسرير خائفة. وفكرت في أن الزواج عرقلة حقاً. لم تكن (ك) هذه مثل (ك) التي عرفتها سابقاً. كانت شجاعة لا تخاف. لكن الآن لا أفهمها إطلاقاً. هل تخاف عليّ إلى هذا الحد؟ وقفت وطردتها من الغرفة، إلى الغرفة الأخرى المجاورة. أغلقت الباب وأنا أهددها بألا تعود مرة ثانية. وأعلنت لها أني في حاجة إلى أن أستريح. لا يهمني أولئك الكلاب المرابطون هناك. اختفت (ك). ولم أعرف ما الذي كانت تفعله. نمت أكثر من ساعة. استيقظت ولم تكن بي رغبة لمغادرة الفراش. ظللت ممدداً وأشعلت البيك – أب. واستمعت من جديد لصوت فيتزجرالد الذي كنت أحبه، ثم سمعت طرقات خفيفة على الباب. ذهبت وفتحت. خمنت أن (ك) تريد أن تقول شيئاً. كانت الآن أكثر ثباتاً مما سبق. وقالت بهدوء أعصاب:

– أعتقد أنهم لن يأخذوك معهم. لو أرادوا لفعلوا.

– لقد قلت لك ذلك سابقاً فلماذا الخوف إذن؟ هل تأكدت مما أقول؟ إذهبي الآن وهيئي القهوة.

– سأفعل.

لكنها قبل أن تفعل، ذهبت إلى النافذة وأخذت تطل عليهم.

– هل ما يزالون هناك؟

– نعم. لكني لست خائفة.

– ماذا يجدي الخوف في مواقف مثل هذه؟ اذهبي وهيئي القهوة.

أخذت كتاباً وحاولت أن أقرأ. لكن لم أستطع أن أركز انتباهي. كان فكري شارداً حقاً. ألقيت الكتاب وناديت على القهوة. جاءت (ك) بصينية صغيرة. وضعتها أمام الفراش وجلست بالقرب مني. ثم دخلت تحت اللحاف بجانبي. شعرت بجسدها بارداً. ثم شيئاً فشيئاً أخذ يتدفأ جسدها الحي النحيف. سكبت القهوة وناولت الفنجان لـ (ك) لكنها رفضت. قالت أنها تريد فقط أن تتمدد بالقرب مني لتشعر بالدفء. إن البرد قارس. في الواقع، لم يكن البرد قارساً، ولكن شعورها الخاص فقط هو الذي يوحي لها بأن الجو بارد. جلست أنا فوق الفراش. مددت يدي إلى البيك – أب أغير الأسطوانة أشعلت سيجارة وأخذت أرشف القهوة بلذة. أما هي فقد كانت عيناها في السقف. وبدت لي بطنها منتفخة وقد تجمع اللحاف فوقها. وفكرت تفكيراً غريباً. يمكن أن يختنق الجنين في بطنها بهذا اللحاف. ثم طردت هذه الأفكار. وقالت (ك):

– إسمع يا (جـ). هل تعتقد أنهم سيظلون مرابطين هناك؟ إلى متى إذن؟

لم أحاول أن أجيبها. بل استمررت في الاستماع إلى الموسيقى ورشف قهوتي بلذة. وعندما انتهيت تمددت بجوارها. كانت بي رغبة لأن أفعل معها الحب. لكنها حامل ومتأثرة إلى حد بعيد. لم يكن لديها – من غير شك – أي استعداد لذلك. ألقيت بذراعي فوق جسدها الممدد. وشعرت بحرارة فائقة. في هذه الأثناء كانت طرقات تسمع على الباب، خفيفة أول الأمر. تنبهت (ك) بكل حواسها. وقلت لها:

– يمكن أن تكون إحدى جاراتك. لكن لا تفتحي.

– لن أفعل. يمكن أن الجيران فهموا كل شيء.

– لا يهم. إنهم يفهمون كل شيء.

ازدادت الطرقات على الباب فخفضت صوت البيك – أب. كانت الشمس قد بدأت تغرب. والطرقات تزداد أحياناً، لتتوقف بعد ذلك. وشككت في هذا الالحاح من طرف الطارق، انزعجت (ك) رغم أنها تظاهرت بالثبات واللامبالاة. في الأخير أحسست أن جسدها أخذ يتحرك. وقفت في النهاية وذهبت إلى النافذة. ظلت واقفة هناك. كنت أتأمل جسدها الرائع الحي. كانت شهية حقاً. قلت لها وهي ما تزال واقفة.

– هل ما يزالون هناك؟

قالت بتخوف:

– يمكن أن يكونوا خلف الباب. لقد قل عددهم في السيارة.

قلت:

– تعالي وتمددي. لا نعيرهم أدنى اهتمام.

عادت (ك) بتخاذل واضطراب وتمددت بجواري. كان جسدها الآن يرتعش. ازدادت الطرقات وخفتت لثوان ثم عادت من جديد.

قالت (ك):

– يجب أن ترحل غداً حتى تنتهي موجة الاضطرابات.

ضممتها إليّ بقوة. وازدادت الطرقات عنفاً. كنت مع ذلك أشعر باطمئنان وبعدم خوف، رغم الحاح الطارق. التصقت (ك) بي، وأحاطتني بذراعيها. وسمعت بكاءها تحت اللحاف. ضممتها بقوة. قلت وأنا أحس بحركات الجنين في بطنها:

– كفي عن البكاء، لا تخافي. في إمكانهم أن يكسروا الباب. لا تخافي.

مع ذلك، كانت ما تزال تبكي وجسدها يرتعش. كان الجنين يرتعش بدوره في بطنها. وعندما مر قليل من الوقت، سمعنا محرك سيارة تغادر المكان في الشارع، كانت الغرفة مظلمة الآن ولم نستطع إضاءتها. وقالت (ك):

– إنهم ينصرفون، لا شك أنهم سيعودون في الليل، أو في الفجر.

أوهام

ألقت نفسها من النافذة، التي لم تكن بعيدة عن الأرض. وفي الخارج سمعها تركض وهي تنتحب. مد عنقه من النافذة، نظر إليها في غضب. اختفت في الظلام البارد، بعد دقيقتين فقط أو أقل ستكون في بيتهم. ستحكي لوالدتها كل شيء. أغلق الرتاج. دار في الغرفة وهو يفكر بعصبية. صرخ الطفل الصغير، فحاولت أخته التي تكبره بعامين أن تسكته. نظر إليها. إنهما يشبهان دميتين كهربائيتين. ورآها تنتف شعرها وتصرخ: «ويلي ويلي!» وتتجه إلى النافذة لتلقي بنفسها منها إلى الخارج.

قال للحاج:

– هات كأس شاي.

طقطق الكرسي العتيق من تحته كما لو كان سيتكسر على الفور. فتح الجريدة على الصفحة الثقافية، وأخذ يقرأ قصيدة لأحد أصدقائه. كل الأصدقاء أصبحوا شعراء إلا هو. قال أن طموحه أكبر من ذلك. إنه لا يتسرع في اختبار موهبته. قد يختبرها بعد عشر سنوات. ربما تكون أنضج من جميع مواهب هؤلاء الذين يكتبون.

قال الحاج:

– سي عبدالكريم، من أين تحصل على كل هذه الصحف؟

ضحك الحاج وأضاف:

– لو فتحت مكتبة هنا لكنت اغتنيت من سنوات.

– لمن ستبيع كتبك؟

– لك وحدك.

أخذ عبدالكريم يرشف الشاي الساخن. يتتبع أبيات القصيدة. يعيد قراءة الأبيات والمقاطع. مثلك لم أر واحدة أبداً. أنت أجمل من كومونة باريس. آه عفواً، أنت أسخف من ثورة بوحمارة، في الساحة المتربة بعض البعر والروث. دجاجات هزيلة تنقب هناك بمناقيرها. مرت مارتين وهي تحمل قفة في يدها. حيته وهي تبتسم. رد بتراخ. قالت:

– أليس عندك درس الآن؟

– لا أشتغل هذه الظهيرة.

– مر عندنا هذا المساء. لقد جلب أندري زجاجات جيدة من الخمر. سأهيئ بايلا. هل تحبها؟

– سأحاول أن أمر. إني أحب البايلا كثيراً.

انصرفت مارتين وقال الحاج:

– إن وجود هذه الثانوية أنعم علينا بمثل هؤلاء الناس. لم نكن نرى الأجانب إلا وهم عابرون من هنا. لو عربنا التعليم ما رأينا مثل هؤلاء الجميلات.

– اذهب إلى الدار البيضاء وستشبع من رؤيتهم.

– آه، الدار البيضاء! إنها حلم يا سي عبدالكريم. يقال أن فيها عصابات كثيرة. وحتى الفتيات هناك يغتصبن الرجال. ماذا قالت لك تلك الأجنبية؟

– ليس ذلك شغلك.

– معك حق يا سي عبدالكريم.

أخذ يتلهى بالنظر إلى الدجاجات التي تنبش الروث والبعر بمناقيرها وهي تتقافز. لم يكن يحيط المكان سوى بعض الحوانيت، وخلفها دور شعبية مكتظة بالكثير من الأطفال الصغار. وخلف الدور المكتظة تفرقت نوايل لخماسين ومستخدمين في البساتين. ومن غير شك فإن تلك النوايل هي الأخرى اكتظت حتى أنها لم تعد تسع أصحابها فلفظت بعضهم إلى الخلاء. أمسك عبدالكريم الجريدة من جديد وأخذ يقلب صفحاتها دون اهتمام. رفع رأسه فرأى قروياً يسوط حماره بعصاه. لكن الحمار لا يأبه للضرب. لقد رفض أن يتحرك. أن يتقدم. يحلو لعبدالكريم أن يجلس في هذا الوقت، عندما لا يكون عنده درس في الثانوية يثرثر مع الحاج أو يقرأ. إن ذلك على كل حال أفضل من النوم. هناك بعض الأصدقاء لا يفعلون سوى ذلك. ماذا يستطيع أن يفعل المرء في قرية صغيرة، تبعد عن أقرب مدينة بمائة وعشرين كيلومتراً؟ لقد اختار أحد رفاقه في العمل الاغراق في الشراب. بعضهم اختاروا مطاردة تلميذاتهم. أما هو، فكان يقرأ وينام مع مارتين كلما أتيحت الفرصة أو تغيب أندري. ومع ذلك فقد كان أندري يحبه. وكانا يتناقشان باستمرار عندما يشربان عن حوادث مايو ٦٨ وكيف أن أندري استطاع أن يحطم كثيراً من علامات المرور وأن مارتين تمكنت هي الأخرى من احراق متجر كبير للعطور.

– يا للأيام الجميلة! هل تذكرين يا مارتين عندما فجرنا ذلك الغضب؟

كانت أياماً سعيدة حقاً.

وقال عبدالكريم:

– ما أروع أن يفجر الإنسان موروثه من الغضب! هل تعرف يا أندري أن الغضب ليس حالة نفسية ولكنه موروث تاريخي. إنه خلاصة ماض بأكمله.

– صحيح. ولقد استطعنا أن نفجر جزءاً من ذلك الموروث.

ورأى عبدالكريم الرجل القروي وهو يشد حزامه. ثم انحنى الرجل ورفع عصاه عن الأرض. وعندما حاول أن يهوي على الحمار، رفع هذا الأخير أذنيه وجرى إلى الأمام. ركض صاحبه وراءه. ثم تخلى عبدالكريم عن مشاهدة ذلك. أدخل اصبعين في الكأس وأخرج أوراق النعنع وأخذ يمصها. كانت لذيذة جداً. وهو يحب أن يفعل ذلك أحياناً. تلك عادة تذكره بسنوات الطفولة. عندما كانت والدته تأمره أن يفرغ البراد من النعنع وينظفه. كان يختلي بالبراد ويمصمص كل محتواه. كم كان ذلك النعنع لذيذاً وحلواً. ولقد احتفظ بهذه العادة حتى بعد زواجه. يحب أن يمارسها أحياناً. وكانت الزوجة تقول: «إنك لست طفلاً صغيراً. اشتر لك مصاصة أطفال نطليها لك بالعسل أو بالمربى». لم يكن يهتم لذلك، بل يستمر في مصمصة أوراق النعنع وتفلها على الصينية. ربما كان عنده شعور بمضايقتها. لأنها تحاول ما أمكن أن تمنعه من مسراته الصغيرة. تلك المسرات الصغيرة التي هي أساس سعادة الإنسان. وكان يعتقد أن تلك الأشياء التافهة في نظر الناس، هي من الأهمية بمكان بالنسبة للشخص الذي تصدر عنه. لقد تعود أن يحترم أبسط وأحقر سلوك إنساني. ولعل ذلك هو الخيط الدقيق الذي فصل بينهما. لأنها لم تكن تتفق معه في وجهة النظر هذه. وألحت عليه صورتها. قفزت من النافذة ثم اختفت من أمام عينيه، واختفت أيضاً من مخيلته. وظهر الطفلان يتقافزان ويناديان عليه بصوت واحد. وراح يقول لنفسه إنه قاس جداً بقدر ما هو عاطفي. وحاول أن يحطم هذا الأخذ والرد في رأسه. ليكن الانسان شجاعاً ولو مرة واحدة في حياته باتخاذ قرار معين مهما بلغت تفاهته. ودفع الكأس فوق الطاولة. وقف واتجه نحو الحاج. دفع له ثمن الشاي. قال هذا الأخير وهو مشغول بتحريك زر المذياع:

– صافي سي عبدالكريم، ستذهب عند الأجنبية؟

– هل يهمك ذلك؟ عندما أكون معها في الفراش سأنادي عليك.

وقال الحاج وهو يضرب صدره بكفه:

– الله الله! كم أنت كبير القلب! إن ظني لم يخطئ فيك أبداً.

– سأتركك معها وسأنادي على الجيران. وسيرون كيف أن رجلاً متسخاً مثلك استطاع أن يغوي امرأة في غاية الجمال.

– سينصبون لي تمثالاً إذ ذاك، وسيحترمني القايد أكثر، وسيعمل كل ما في مستطاعه لانجاحي في الانتخابات القادمة. وسأصبح اقطاعياً كبيراً.

– هل ستنساني؟

– كيف أنسى سمساري؟

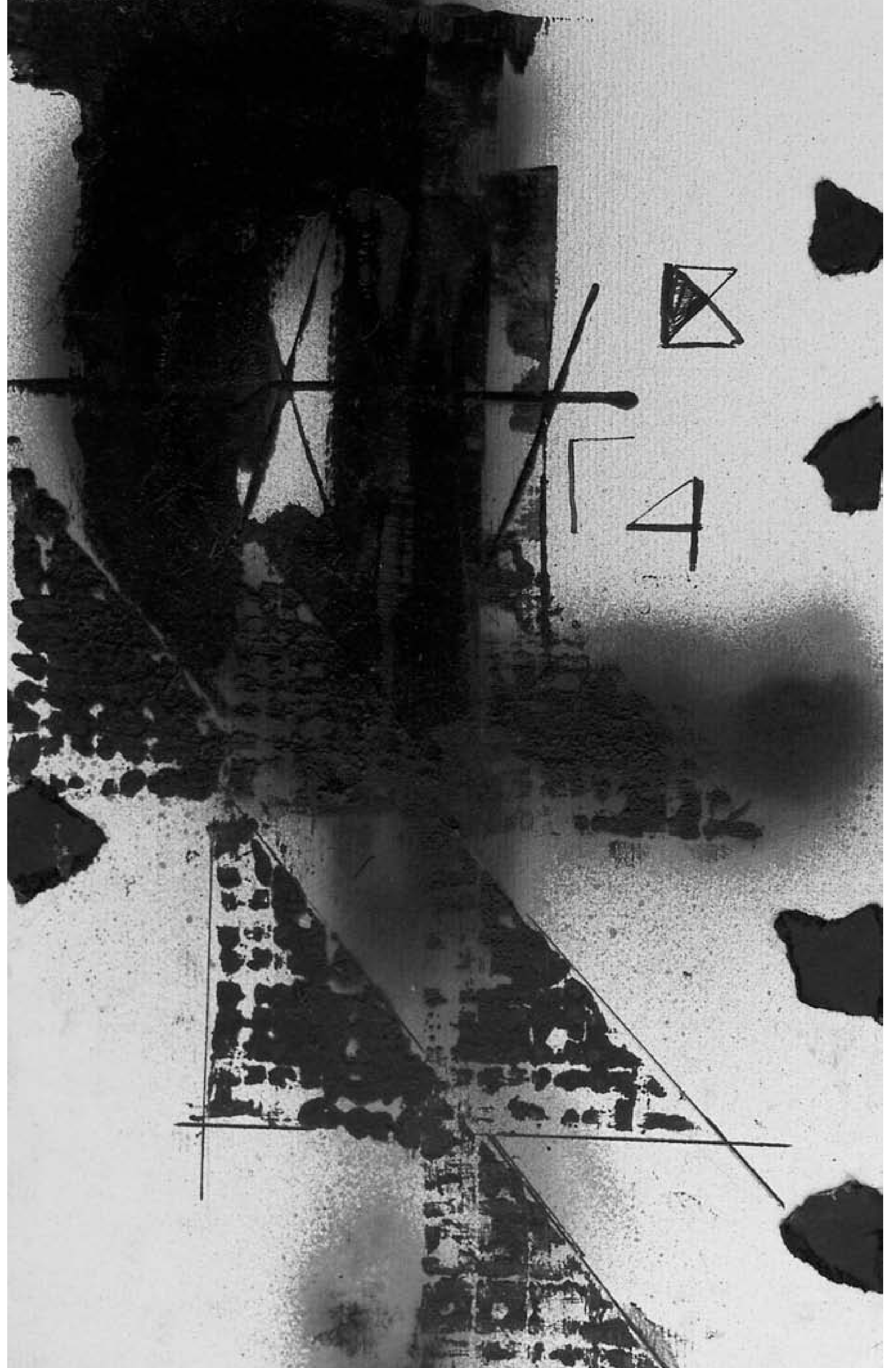
ضحكا معاً. التقت كفاهما في الهواء. شدا على كفي بعضهما بقوة. ونزلت دمعة فرح من عين الحاج. غادر عبدالكريم القهوة. أحس أنه يعيش في فضاء هائل متخيل. ليست هناك بيوت ولا أشجار ولا طرق ولا فلاحون ولا ثكنات عسكرية. هناك فضاء واسع فقط. إلا أنه تضايق منه. لقد كان مخيفاً. فهو لا يستطيع أن يعيش في فضاء مثل ذاك، لأنه يبعث على التوتر والألم. كم كان يتحمل أشياء مماثلة وهو في سن معينة. إلا أنه الآن، لم تعد له قدرة على التحمل. أبسط الأشياء تثيره، لأنه لم تعد له قدرة على قبول أي شيء، حتى ولو كان هذا الشيء منعه من مصمصمة أوراق النعنع.

(– هل من السهولة التخلي عن هذين الصبيين؟ إنهما بريئان.

– أعرف ذلك.

– من أجلهما أرجو أن نستمر.

– لو فعلت شيئاً بسيطاً من أجل ذلك!



– لقد فعلت الكثير.
– أنت لم تفعلي شيئاً. يجب أن نفترق.
– لماذا لا تتحمل ولو قليلاً من المتاعب مثلما يتحمل باقي الناس؟
– لم تعد لي القدرة. في السابق، في سن معينة، كان بامكاني ذلك).

كانت القرية خالية الآن. الشمس فقط وكلب دلى لسانه الأحمر وهو يلهث. مشى عبدالكريم دون أن يفكر، تجاه باب مصبوغ بطلاء أخضر باهت. طرق الباب والتفت ليرى بعض التلاميذ الذين ربما تغيب أحد أساتذتهم، يلعبون بالكرة. طرق الباب فخرجت فتاة صغيرة قذرة. نظرت بعين واحدة بين الجدار والباب.

– قولي لأبيك: زجاجة واحدة كيفما كان نوعها.
– لا يمكن. لقد مر رجال الدرك أمس واحتجزوا كل الزجاجات بأمر من القايد. لحسن حظنا أنهم لم يأخذوه إلى السجن.
– قولي له: سي عبدالكريم يريد ذلك. أنا متأكد أنهم لم يفتشوا البئر وأنت تعرفين ذلك، لا تكذبي أيتها الساقطة.
– لقد فتشوا كل شيء حتى البئر.
– لا تكذبي. إنهم لا يعرفون أن في بيتكم بئراً.

أغلقت الفتاة الصغيرة الباب في وجه عبدالكريم. وعندما تأخرت عاود الخبط على الباب بدون جدوى، لأنها لم تفتح. إنسحب وهو يشتمها بصوت مرتفع. تذكر بعض زملائه الذين يشربون أو يطاردون تلميذاتهم. في هذه القرية الصغيرة ليس هناك من اهتمام بسوى السكر أو الزنى. انحنى عبدالكريم والتقط عدة أحجار. أخذ يطوح بها بعيداً، ثم تذكر أن هذا عمل لا يليق بأستاذ. لو رآه أي شخص لاعتقد أنه فقد عقله. أرخى ذراعه فهوت قطعة الحجر الأخيرة بهدوء إلى الأرض. إذا كانت البئر قد جفت أو فتشها الدركيون فإن هناك أندري ومارتين. ابتسم لنفسه. في أحرج الأوقات يستطيع أن يجد لنفسه مخرجاً.

(– إن ما يعجبني فيك هو صمودك وعنادك.
– لست كما تدعين. ولكني فقط أعرف ما أعمل.
– ولهذا السبب فإني لا أريد أن نفترق، نعمل من أجل إسعاد طفلينا.
– كان عليك أن تعملي لذلك في السابق. أما الآن، فليس وقته.)

وقالت مارتين في المساء:

– إن ما يعجبني فيك هو عنادك.
– لقد جفت البئر أو ربما فتشها الدركيون.
– ماذا تقول؟ إني لا أعرف فيم تتحدث.
– ليس مهماً.
– اشرب. يبدو أنك في حاجة إلى ذلك. هل تتذكر زوجتك وطفليك؟
– مثلما تتذكرين أندري الآن.
– ليس هناك أي وجه للمقارنة. بالنسبة لي فإن أندري يعرف كل شيء.

تمدد عبدالكريم على ظهره. اقتربت مارتين وأخذت تمر بأصابعها على شعره، استلذ ذلك أول الأمر، لكنه في النهاية حرك رأسه وابتعد عنها. وقفت وذهبت إلى المطبخ. أحضرت شريحتي لحم. واستمرت تصب لنفسها الكأس تلو الأخرى. كان عبدالكريم يشعر أنه ليس وحيداً في هذا العالم، استطاع أن يتعرف على الكثير من الناس. يعتقد أنهم يحبونه كثيراً. وحتى ولو كان ذلك وهماً فإنه يرضيه. إذ كيف نستطيع أن نميز بين الوهم والحقيقة. وأراد أن يقول ذلك لمارتين لكنه تراجع. وسمعا جرس الباب يرن. ليس أندري على كل حال. لكن

– دع عنك الأوهام. نستطيع أن نتلافى كل ما فات ونعيش من جديد من أجل طفلينا.
– إني لا أتشبث بالأوهام أبداً. لكني أحياناً لا أفرق بينها وبين الحقيقة.
– تلك هي مشكلتك.
– أعتقد أنها ليست مشكلتي وحدي. إنها مشكلة أي إنسان. ستعرفين أنت كذلك هذا إذا ما تمعنت في الأمر جيداً.)

سمع عبدالكريم أصواتاً مرتفعة في الخارج. ميز منها صوت مارتين بصعوبة. أخذت الأصوات تقترب، وأصبح أكثرها حدة هو صوت مارتين. ثم أطلت عليه قامة رئيس الدركيين. كانت مارتين تقول:

– إن هذا غير معقول.

قال الرئيس لعبدالكريم:

– تفضل. خذ معك الزجاجة. أنت متهم بالسكر والخيانة الزوجية.

كانت مارتين تصرخ:

– غير معقول. عبدالكريم. إن هذا الدركي يريدني لنفسه. لقد حاول معي مراراً. لم أر مثل هذا أبداً. غير معقول. غير معقول. يا له من بلد غريب!

جبال وخنازير برّية

عندما رأى القائد وأعوانه الدوار وهم في أعلى الجبل شعروا أخيراً بالخلاص. لقد سارت سيارات الجيب الثلاث مسافة عشرين كيلومتراً، في طريق وعرة جداً، مليئة بالحفر وضيقة. القائد وحده هو الذي يتصبب عرقاً، وتبدو عليه علامات الانهاك لأنه لم يتعود هذه الحياة القاسية. أما أعوانه من القوات المساعدة فقد كانوا من أبناء المنطقة، اشتغلوا بالرعي وتسلقوا الجبال والأشجار، وبعضهم حارب مع فرنسا في الهند الصينية. بدا الدوار وسط الغابة الكثيفة المحيطة به كبقع بيضاء متفرقة. إلا أن بقعة واحدة بيضاء كانت تبدو بوضوح بارزة وسط الأشجار ووسط الدور الصغيرة المتفرقة. كانت البقعة مقهى وفندقاً وسكن لمعمر إيطالي ذي جنسية فرنسية، ورث المكان عن أبيه الذي ابتناه في الأربعينات ومات مقتولاً من طرف أحد أعضاء جيش التحرير الذي فاجأه وهو يتجول على بغلة في الغابة المجاورة. أخرج القائد منديله المطرز الحواشي بالأخضر يمسح جبينه وأرنبة أنفه. ثم مرر المنديل تحت ذقنه وحول رقبته. وقال وهو يسعل:

– وأخيراً وصلنا.

– لم نصل بعد يا حضرة القائد.

قالها السائق الذي بجانبه وضرب على المقود بأصابعه ضربات خفيفة. لم يجبه القائد، لأنه مشغول بالنظر إلى تلك البقع البيضاء المنتشرة وسط الأشجار. وتمنى لو كان ذلك المنبسط كله تحت الجبل ملكه وحده. ولكنه يعلم أنه ملك لفخذة توارثته منذ قرون ربما. ومهما حاول أن يزور من الوثائق مثلما فعل ببعض الأراضي فإنه لا يستطيع الحصول على هذا المنبسط الذي تغطيه الأشجار. كانت سيارة الجيب تهتز فوق الحفر والأحجار في حجم رأس البشر. يتقلقل معها القائد ويبعث زفيراً قوياً ويستمر في مسح وجهه بالمنديل. سارت السيارات الثلاث ببطء في الطريق الضيقة جداً التي تحفها من الجانبين مرتفعات تشبه الحيطان هي بقايا شق طريق. اختفى الدوار لحين ثم ظهر عندما تجاوزت السيارات الثلاث هذه الحفرة السحيقة وسط الجبل. التفت القائد إلى السائق:

– كم يتعين علينا أن نقطع الآن حتى نصل إلى الدوار؟

– لست متأكداً حضرة القائد. أغلب الظن أربعة كيلومترات كلها التواءات وحفر وأحجار، ومن يدري ربما تعترضنا صخرة سقطت من أعلى الجبل.

– فمك لحسه كلب.

ابتلعها السائق، وتظاهر بأنه لم يسمع شيئاً. زاد من سرعة السيارة قليلاً. وود لو أنه يفتح الباب، يقفز من السيارة ويتركها تهوي بهذا الجبان إلى الحضيض. وقال للقائد:

– حكاية الخنازير الوحشية هذه لن تنتهي مع هذا الدوار أبداً. إن عليهم أن يتسلحوا لكي يدافعوا عن أنفسهم.

– ماذا تقول أيها الوغد؟ ألا تعرف أن حمل السلاح بالنسبة للمدنيين ممنوع. هل تريد أن تزرع ثورة في البلاد؟

– عفواً سيدي. أنا لم أقصد...

– أنظر أمامك واسكت.

مرقت أمام الجيب ثلاثة أرانب بيضاء ومخططة بالأسود. ثم اختفت في دغل على جانب الطريق. تنهد السائق وقال:

– إنه مكان صالح للصيد يا سيدي.

– ألا تعرف أنه لم يحن بعد موسم صيد الأرانب؟ و.. أن من قام بذلك الآن تلزمه عقوبة؟... قلت لك أنظر أمامك واسكت.

كانت بعض الأشجار التي لا تعطي ثماراً، معلقة في الجبل وعلى صخوره وأحياناً خلف نتوءات الجبل لا يظهر منها إلا الرأس أخضر متفتحاً في فضاء فسيح واسع ورمادي. القائد وحده يتمتع بإجالة النظر في كل هذه الأشياء. والسيارات الثلاث تسير الآن ببطء شديد حتى أنها تكاد تصطدم ببعضها. ترتفع قليلاً ثم تهوي في بعض الحفر، فيكاد المقود ينفلت من يدي السائق. التفت القائد إلى الخلف، وطل من خلال النافذة المشبكة، فرأى بعض رجال قواته والسلاح بين سيقانهم وهم يكادون أن يناموا صرخ من النافذة بصوت غاضب:

– أنت هناك. ألم تنم بما فيه الكفاية ليلة أمس؟

ارتعد الرجل وجمع ساقيه وأمسك بيدين حديديتين على بندقيته. تظاهر بالمسكنة. صحيح أنه لم ينم بما فيه الكفاية ليلة أمس، لأنه حرس المركز من الثانية صباحاً حتى السادسة، والقائد بطبيعة الحال يعرف ذلك. لكنه يصر على فرض سلطة معينة حتى يبدو رجلاً قوياً. لقد صرخ في وجه الرجل لكنه لم يعر اهتماماً لنتيجة صراخه. المهم أن يصرخ القائد متى ما أتيحت له أدنى فرصة لذلك. جفف القائد بعض العرق على وجهه ورقبته السمينة. شعر أنه يقسو كثيراً. وحاول أن يبدو لطيفاً شيئاً ما. غيّر ملامح وجهه وابتسم لنفسه لكنه أحس أن تلك الابتسامة ليست حقيقية. وأراد أن يعوض عن انفعاله بحركات من يديه قال للسائق بجانبه:

– يمكنك أن تدخن.

– إني أنتبه للطريق، سيدي.

– لا يهم.

– إني أدخن كثيراً مع ذلك..

– ومع ذلك ماذا؟ قلت لا يهم. دخن. لكن لا تنفث دخانك في وجهي.

– حاشى لك سيدي.

أخذ يفتش السائق في جيبه عن العلبة. أخرجها وألصق سيجارة بين شفتيه. ظلت السيجارة ملصقة بين شفتيه لوقت طويل. تردد كثيراً في إخراج علبة الثقاب من جيبه. لم يكن يعرف سبب هذا التردد. ربما خاف من القائد. يمكنه أن يتراجع عن وجهة نظره، كأن يقول مثلاً: «أيها الكلب! من قال لك دخن؟» وقال السائق في داخله «الكلب هو أبوك». وأضاف «أعوذ بالله». أخذت عضلات وجه القائد ترتخي قليلاً، تتمطط، علامة على مسرة حقيقية، وغير مفتعلة. قال القائد لنفسه: «يكفي المرء أن يقنع نفسه بشيء حتى لو كان مستحيلاً، فيتحقق هذا الشيء، على الأقل في الحلم». شعر أنه حقق شيئاً ليس مستحيلاً، لكنه ليس في مقدور أي إنسان أن يفعله. أن تنتقل من حالة نفسية لأخرى بدافع تلقائي. ثم أخذ يضرب بأصابع يده اليمنى على ركبتيه. لكنه كف عن ذلك، معتقداً أن هذه اللعبة لا تليق برجل محترم مثله وأمام تابع له. وقع في مأزق فالتفت عن يمينه يتفرج على الصخور الناتئة والأشجار القصيرة المتشابكة، أماكن معينة من الجبل. فكر لو أنه طلب الانتقال من هذه المنطقة الوعرة والتحق بإحدى العمالات في المدن. غير أنه أدرك بغريزة الكلب أن الأمر سيختلف كثيراً عما هو عليه هنا. ستنتزع منه كثير من الامتيازات سيفرض عليه الحضور في الثامنة صباحاً، سيضطر إلى الانحناء كل صباح احتراماً لسعادة العامل، ستصم أذنيه الأوامر الجهنمية الوقحة عن طريق التلفون. أحس أنه في وضع مريح هنا. وإنه الأول والأخير. أخذ يضرب من جديد بأصابع يده اليمنى على ركبته مبعداً صورة الحرج من ذهنه. التفت إلى السائق وخاطبه باسمه هذه المرة:

– علال، أشعل سيجارتك. هل ما يزال الطريق أمامنا طويلاً؟

– ثلاثة كيلومترات، سيدي.

شعر السائق ان القائد تغير نوعاً ما. تلك عادته. إن المرء لا يكاد يحكم عليه حكماً نهائياً. إنه يغضب كثيراً أو في أغلب الأوقات لكن أحياناً تتلبَّسه حالات طيبة لا تتصور يصبح كريماً، متسامحاً. سيدي زوجتي مريضة. شفاها الله! خذ هذه المائة درهم. سيدي لقد تعبت كثيراً. إني لم أنم منذ يومين فهمت فهمت. خذ لك أسبوعاً راحة. الله يكون في عونكم، إني أعرف أنكم تتعبون. وأنت يا عبدالقادر، ما يزال ابنك يحصل دائماً على المرتبة الثانية في الصف؟ نعم سيدي. – خذ كيس الدقيق ذاك واعتن كثيراً بعائلتك. لا سند لإنسان في هذا العالم سوى عائلته. حتى الله لا يمكنه أن يقف بجانبك في اللحظات الحرجة بل البشر. وأنصح ابن عمك بأن يبتعد عن السياسة. ولولا إخلاصك وجديتك لكنت قد قبرته في السجن.

أخرج السائق علبة الثقاب وبصعوبة أشعل لنفسه واحدة نظر في المرآة عن يساره. لم ير أثراً للسيارتين. التفت إلى القائد:

– سيدي. السيارتان اختفتا.

– ماذا تقول؟

– السيارتان، لا أراهما.

– عليك أن تسير ببطء. ستلحقان بنا من غير شك الطريق صعبة ومليئة بالأحجار والحفر.

– نعم سيدي. أحجار بحجم رؤوس البشر.

وقال القائد:

– هل تعرف اني مسرور جداً بينكم في هذه المنطقة. إن خمس سنوات مرت بسرعة كما لو كانت يوماً وليلة.

– إنها منطقة رائعة وأهلها طيبون كما عرفتهم يا سيدي.

– صحيح. لولا مضايقات هذه الخنازير البرية في كل موسم.

– لقد كان ذلك منذ القديم سيدي. حتى قبل الاستقلال إلا أن الحوادث لم تكن بنفس الحدة الآن. فقد كان الفرنسيون يصطادون هذه الخنازير ويطبخونها. هل ذقت لحمها سيدي؟

– لا..

– إن لحم هذه الخنازير البرية لذيذ. ألذ من طعم البقر. ولكن الناس لا يأكلونه لأنه حرام. ما هي الآية التي تحرم الخنزير يا سيدي؟

لم يجبه القائد. بل أخذ ينظر إلى تحت. أعجبه ذلك المستطيل تحت قدم الجبل المحروث بعناية والمحاط بسياج من الأشجار القصيرة، التي لا شك أنها شائلة. التربة داكنة السمرة، تقترب من السواد. مثل هذه البقع الصالحة للحرث قليلة هنا. أحياناً يضطر الناس إلى إيجاد بقع معينة في جنبات الجبل لحرثها أو لغرس أشجار اللوز أو الزيتون فيها. وفكر أن هذا المستطيل الصغير تحت الجبل ربما كان المورد المالي الوحيد لعدد كبير من العائلات. وعندما اهتزت السيارة من جديد، انتفض القائد، ونظر إلى الأمام. وقال للسائق:

– يمكنك أن تتوقف، حتى ننتظر الآخرين.

– ربما كان كثير من الجرحى ينتظروننا الآن سيدي.

– لا يهم. ما فات مات. ثم انهم متعودون على

هـذا الـنـوع مـن الحوادث كل سـنـة إن عـلـيـهـم أن يتسلحوا.

أدرك القائد أنه ارتكب خطأ. نظر إلى السائق، فاضطرب هذا الأخير، وحك جبهته من الانفعال. وأضاف القائد بسرعة وهو يتلعثم:

– بالعصي. أن يتسلحوا بالعصي. ألا يمكنهم أن يطردوا الخنازير بالعصي.

– إنها قوية يا سيدي. ثم إنها تهجم جماعات جماعات وحتى لو وجهت لها الرصاص فإنها تستمر في هجومها. هل أتوقف سيدي؟

– نعم. حتى يلتحق بنا الآخرون.

تنحى السائق يميناً ببطء وحذر شديدين. الطريق ضيقة لا تتسع إلا لسيارتين. وأحياناً لا تتسع إلا لسيارة واحدة. وأحياناً يلزم التوقف لمدة ساعة على الأقل لإزاحة بعض الأحجار أو قطع الجبل التي تسقطها سيول الأمطار أو غيرها من الأعلى وهذه الطريق الثانوية ليست مرقمة لدى مصالح وزارة الأشغال العمومية. وقد حفرها السكان تحت سياط قبطان فرنسي بفؤوسهم وأظافرهم مدة سنة، عندما حاولوا أن يتمردوا على أثر إطلاق رصاصة في المنطقة قبل ثلاثين سنة. القائد لا يعرف هذا. فتح الباب وقفز إلى جانب الطريق. ذهب إلى مؤخرة الجيب وأمر الرجال بالنزول لكي يشموا قليلاً من الهواء حتى يلتحق بهم الآخرون قفز الرجال واحداً واحداً إلى الأرض وبنادقهم في أيديهم. بدا على وجوه بعضهم الانهاك. تفرقوا ثم تجمعوا انسل أحدهم وسط أغصان شجيرة قصيرة متمسكة بالأرض غضباً، جلس خلفها فظهرت قبعته الخضراء الباهتة مثل فاكهة. وسمعت شرشرة خلف الشجيرة، وسمعت خشخشات بعض الحيوانات أثارتها حركة الرجل. قال أحد الرجال:

– ماذا سنفعل لهذه الخنازير الملعونة. لقد قتلت من قتلت وجرحت من جرحت. هل سنذهب لنطاردها في الغابة؟

أجاب آخر:

– إنها الأوامر. القائد يريد أن يتظاهر بأنه يحميهم. ولو أراد ذلك فعلاً لسلحهم. هل تعرف أنه يمنع عنهم حتى بنادق الصيد؟

– اسكت إنه هناك. لو سمعك تتحدث عنه لقطع لسانك.

– طز عليه.

– هل تستطيع أن تقولها في وجهه؟

– نعم.

اقترب القائد ويداه حول خاصرتيه. يتشمم الهواء بطريقة مسرحية. ويمشي بطريقة أظهرت جسده كآلة مفككة لم يحكم شد محازقها. وعندما نظر إلى الرجال قال الآخر لصديقه:

– قلها في وجهه إذن.

قال الآخر:

– أستطيع أن أقولها. هل تعتقد إني جبان وخائف مثلك؟

ثم قال للقائد:

– سيدي! لا شك أن حكاية الخنازير هذه تتعبك في كل موسم. سنحاول ما أمكن مطاردتها. يمكنك أن تترك بعضاً منا حول القرية مدة خمسة عشر يوماً لحمايتها.

لم يهتم القائد لاقتراح الرجل، في حين فوجئ بصديقه يشتمه بصوت منخفض: «اسكت يا ولد...». إنها فكرة جيدة من النوع الذي يروق للقائد أن يتشبث به، ولكن هدير السيارتين القادمتين هو الذي جعله لا يعير اهتماماً للاقتراح. كانتا تتمايلان مثل سلحفاتين كبيرتين. ضرب القائد كفاً بكف ومشى بعيداً قليلاً عن الرجال. وقف الذي كان خلف الشجيرة وأخذ يزرر بنطلونه وبندقيته بين فخذيه. توقفت السيارتان متحاذيتين. قال السائق الأول دون أن يسأل:

– لقد تعطلت إحدى العجلات واضطررنا لاستبدالها يا سيدي.

قال القائد:

– متى سنصل إذن؟ أمامنا طريق العودة. هل تريدون أن نقضي ثلاثة أيام للوصول إلى القرية؟

ثم صعد إلى الجيب وصفق الباب بعنف. ركض الرجال وراءه وألقوا بأنفسهم في الخلف. تحركت الجيب الأولى، هدر محركها بحشرجة وتبعتها السيارتان الأخريان. أصبحت الطريق منحنية إلى الأسفل بشكل مخيف مما اضطر السائقين الثلاثة إلى بذل مجهود للتحكم في السيارات.. إن هذا المنحدر هو العلامة الوحيدة على أن القرية قريبة جداً – كانت أمعاء كلب معفر في التراب ملتصقة بالأرض. ليس لها لون ولكن، يمكن أن تكون لها رائحة. داسته عجلة السيارة لأنه لم يكن هناك امكانية تجنب ذلك. شعر القائد بهذا فلم يعلق بشيء عندما اهتزت السيارة على أثر الارتطام برأس الكلب.

لكنه قال فيما بعد:

– هل تعرف أن رأس كلب يمكنه أن يقلب سيارة؟!

– نعم سيدي. إذا كانت سرعتها تفوق المائة في الساعة.

– إني أعرف صديقاً مات بحادثة من هذا النوع. أف. لا يهم. كم بقي من الوقت لكي نصل؟

– لقد وصلنا تقريباً. بضعة دقائق ونصل.

– إن أمامنا عملاً متعباً. نقل الجرحى. مطاردة الخنازير.

– الخنازير تكون قد فرت واختفت في الغابة. يستحيل سيدي البحث عنها. يجب إعطاء الأوامر لحراس الغابة حتى يتكلفوا بمطاردتها.

– ذلك صحيح.

زفر القائد وحك قنة رأسه بسبابته. نظر عن يمينه. لم يكن هناك شيء يثير الانتباه. فقط نفس العالم: الأحجار الكبيرة والأشجار الصغيرة، وطائر لا يعرف له إسم يحوم في الفضاء. السيارة تستمر في انحدارها ثم بعد منحرف صغير بدا المقهى واستوت الطريق واتسعت حول المقهى بنايات بيضاء هي عبارة عن حوانيت ودور سكن تحفها النباتات الخضراء التي تكاد تغطيها نهائياً. سارت السيارات الثلاث في الطريق أمام المقهى فأثارت الغبار من خلفها. ركض الأطفال وراءها في خوف وتبعهم بعض النساء الحافيات والرجال الحفاة. اخترقت سيارة القائد مجموعة من الناس. تشتتت الحلقة. وراحت بعض النسوة يندبن ويولولن، عندما قفز القائد من الجيب تبعه رجاله ووسعوا الحلقة بمؤخرات بنادقهم. ارتمت امرأة مسنة على قدم القائد تقبلها في شبه هذيان. دفعها دفعة خفيفة وأخذ ينظر بألم إلى ستة من الرجال ممددين فوق التراب. أمسك أحد الرجال المسلحين المرأة من ثوبها القذر وجرها برفق حتى تنضم إلى الآخرين. التفت القائد إلى حلقة الناس وأخذ يحاول أن ينظر إليهم واحداً فواحداً، كأنه يعتذر لهم عما حل بهم، أو كأنه يشرح لهم أن الأمر ليس بيده. ولكنها الخنازير الملعونة هي المسؤولة. أو ربما هناك شيء آخر مسؤول عن كل هذه الأشياء التي تقع مثل انهيار جزء من الجبل أو تدفق سيل من الأعلى أو هبوب عاصفة تحطم الأشجار وتذهب بأسقف البيوت. ثم اخترق رجل المجموعة وفي يده محفظة قذرة، مثل تلك التي يحملها التلاميذ الفقراء في الأحياء الخلفية، وعلى عينيه نظارة مشدود أحد طرفيها بقطعة ثوب إلى أذنه. انحنى الرجل على يد القائد يقبلها. وقف بتهيب أمامه، قال للقائد:

– لقد وقع ذلك هذا الصباح يا سيدي. وحاولت أن أتصل بكم تلفونياً مراراً. لكن التلفون في أغلب الأحيان يكون معطلاً في المقهى.

– ليس هناك مشكل. هل مات أحد؟

– لا يا سيدي. ليس هناك مشكل. لم يمت أحد. فقط هؤلاء الجرحى يبدو أنهم في حالة سيئة.

– سنأخذهم إلى المركز الصحي في القيادة.

أشار بيده إلى الرجال ونظر إلى السيارات، رفع الجرحى عن الأرض بسرعة وهم يئنون. ثم ألقى بهم داخل السيارات. فكر القائد أن يدخل المقهى لكي يتناول مبرداً لكنه تذكر هؤلاء الذين يتجمعون حوله. كيف يمكنه أن يصرفهم من حوله. عدل عن ذلك ومشى نحو الجيب وصفق الباب بقوة من خلفه. تحركت السيارات الثلاث ودارت في الساحة حول نفسها. شتتت المجموعة وأثارت الغبار من خلفها. أخذ بعض الصغار والكبار يحكون أعينهم بظهور أكفهم وارتفع النشيج، تحول إلى بكاء وعويل.

قال السائق للقائد:

– يلزمنا وقت لكي نصل إلى المركز الصحي يا سيدي.

– لا يهم. هات علبة الثقاب.

أشعل لنفسه سيجارة أمريكية. جذب النفس بعمق كما لو كان قد قضى على أكبر مشكلة تؤرقه. أخذت السيارات الثلاث تتمايل إلى أعلى مثل السلاحف: بلونها الأخضر الباهت. وعندما تعب الأطفال من الركض وراءها وقفوا يلهثون حفاة تحت الغبار. لوح أحدهم بيده لها. لكن لا أحد يرد عليه. تجمع الناس في الساحة حول الرجل ذي النظارة. قالت امرأة:

– أخشى ألا يعودوا. لقد مات كل من جرح في السنة الماضية عندما نقلوا إلى مركز القيادة. وقال رجل للمقدم صاحب النظارة:

– لماذا اتصلت بهم تلفونياً. كنا يمكننا أن نتدبر أمرنا وحدنا. نداويهم بالأعشاب واللبيخات والكي.

قال المقدم:

– إنني مسؤول يجب أن أخبر عن كل ما يقع هنا.

– إنهم سيموتون.

– كان عليك أن تقول ذلك للقائد قبل لحظة. كان عليكم أن تحموا أنفسكم من الخنازير البرية. وقالت المرأة التي تولول:

– ناري! وليدي سيموت.

قال المقدم:

– هيا تفرقوا.

ثم سوى وضع نظارتيه على أرنبة أنفه. ومشى ومحفظته القذرة تتدلى من يده حتى تكاد تلامس الأرض لقصر قامته. كان بعضهم يتحدث وكان البعض الآخر يتبعه وهو يطلق كلمات في الهواء، من الأكيد أنه كان يسمعها، ولا يعيرها أدنى اهتمام.

الأقوى

أخذ الأطفال يهللون وهم يتطلعون إليه، متشعبطاً في العمود الكهربائي. شجعوه بالصفير والتصفيقات وكلمات الإهانة التي تنقص من شجاعة. كان يتحداهم ويستمر في تسلق العمود الكهربائي. ثم فجأة يرفض التيار الكهربائي اللحم البشري، فيسقط قويدر مصطدماً بالأرض وهو يبكي. فر الجميع بعد أن تأملوه لحظة. تركوه وحده يتألم ويستنجد ثم بعد شهرين في مستشفى حكومي، أصبح يسمى بويدية.

قالت فاطنة:

– حتى الحكومة تخافه. يقال إنه يتحكم في الدوار كله. ومع ذلك فهو يخاف ولدي.

ردت جارتها:

– يجب أن تحذري. لا تتحدثي عن بويدية بسوء أبداً. إنه يستطيع أن يسمع كل ما يقال عنه بطريقته الخاصة. فآذانه منتشرة في كل مكان.

– إن ولدي أقوى منه ويستطيع أن يبتر له اليد الأخرى.

– أنت تتكلمين فقط، إذا أردت أن تفقدي ولدك فواجهيه مع بويدية وسترين،

– إني لا أزال أتذكر أنهما عندما كانا صغيرين، كانت أم بويدية تأتيني دائماً شاكية باكية. وتدعي أن ولدي خبط ابنها على الأرض مراراً حتى أفقده وعيه.

– بويدية صار الآن رجلاً. وهو يستطيع أن يقف في وجه جيش بأكمله.

وقالت فاطنة. بصوت مرتفع:

– يلعن أبوه. وها أنا أقولها بصوت مرتفع.

بويدية إذن يزرع الرعب. كان عنيفاً متحدياً منذ الصغر. تستطيع أن تضربه بالأرض مرة تلو الأخرى لكنه لا ينهزم. يكرر التحدي. يعتقد أنه أقوى إنسان في المنطقة، بل في العالم كله. «اضرب فلحمي ميت. ولكن إمَّا بي أو بك. اختر ما دمت تريد أن تتحدى بويدية. الموت لي أو لك».

قال سي محمد البقال:

– من يدّع القوة يمت ضعيفاً.

أجاب البقال المقابل له:

– لم يكن بويدية يدعي القوة فقط. ولكنه كان يدعي ما هو أكبر من القوة. لذلك قتلوه شر قتلة. لا رحمة الله عليه.

– لكنه لم يؤذنا قط.

– لأننا جيران والديه ربما.

– أليس له أب. يقال أن أمه حملت به من رجل آخر.

– احذر أن يسمعنا.

– كيف ذلك؟ هل نخاف منه حتى وهو في قبره؟

– آه! نسيت أنه قد مات.

قيل ان الروح عزيزة عند الله. وأن من قتل بغير حق لا بد وأن يموت بحق. فبويدية قتل بدون حق، ولذلك كان موته بحق. ويعلم الكثير أنه قتل ثلاثة أو أربعة أشخاص في حياته، لكن لا أحد يستطيع أن يشي به. كلهم يصمتون عن القتل ولا يصمتون عن الطعن في أعراض بعضهم البعض. ولأنهم مسالمون فهم يغتابون بعضهم ويرضون بذلك. إن تغتب تغتب. إياك أن تغتاب بويدية، فهو يسمعك حتى لو كان داخل السجن. آذانه طويلة عريضة تلتقط كل شيء، حتى همسات الناس في الفراش، وهم في خلوة بعيداً عن العالم. إن ما تقوله الزوجة لزوجها يسمعه بويدية، وما يقول الزوج للزوجة يبلغ بويدية بهذه الطريقة أو تلك. لكن كل من يدّع القوة يمت ضعيفاً.

وقال رجل:

– يقال انه دخن كثيراً من الكيف وشرب كثيراً من الخمر قبل أن يقدم على قتل مسعود.

ورد آخر:

– إن أصحابه دخنوا وشربوا أكثر منه.

وقال آخر:

– لم يكونوا يريدون قتله. لكن مسعود – رحمه الله – كان عنيداً وحاول أن يتحداهم، فانغرز رأس الحديدة المدببة في رأسه. مات بعد أن فركل بقدميه لحظات معدودة.

– سمعت إنهم قتلوه من أجل ثلاثمائة درهم. ما أقبح أن يقتل الإنسان أو يموت بهذا الثمن البخس!

وفي الواقع، فإن بويدية يستطيع أن يقتل أو يجرح أو يعتدي لا لشيء إلا لمجرد العناد والتحدي. ألم يكن هو الأقوى في الدوار بل في العالم؟ إن كلمة الأقوى يجب أن تسمع مهما كان الأمر.

عندما بلغ أمه خبر وفاته، خرجت تضرب فخذيها وتلطم وجهها وتتمرغ في التراب وتقول بأنها فقدت أحسن الرجال. لكن النساء – كعادتهن – لم يبكين ولم يلطمن أفخاذهن معها. بل كن بدافع التشفي، ينظرن إليها في حقد وهن يطللن من خلف فجوات الأبواب. لم تكن امرأة في السابق تستطيع أن تقع في مشادة معها. فبويدية، يمكنه أن يشوه وجوه الأزواج وأن يغتصب النساء والأطفال الصغار. استمرت أمه في اللطم والبكاء والأنين حتى فقدت وعيها، وفركلت للمرة الأخيرة كما لو كانت تحتضر. ولم تخرج امرأة لتشممها البصل. كان فمها ووجهها معفرين بالتراب وهي تتنفس بهدوء. وخرج زوجها المسلول وهو يتعثر. ثم جرها من قدميها بصعوبة نحو باب الكوخ. وكما لو كانت تفتعل هذه العادة فتحت عينيها وقالت له: «اتركني يا ولد الفاعلة». تركها الزوج ممددة على التراب. وجلس تحت ظل الكوخ القصديري. أخرج السبسي والمطوي أخذ يدخن الكيف وهو يسعل. عاودت الفركلة مرة أخرى وبدأت تهذي، ثم ارتخت نهائياً.

وقالت امرأة لجارتها:

– إنها أكثر شراً من ولدها.

– أتمنى أن تموت. إن عندي كيلوغرامين من البصل. والله لن أشمم لها واحدة.

– دعيها تموت.

– لن تموت، فهي أقوى من عفريتة. من يدع القوة يمت ضعيفاً. لا بد وأن تنغرز في جسدها سكين حادة ذات يوم.

تحامل الزوج على نفسه. بعد أن أعاد السبسي إلى جيبه. فتح الباب على مصراعيه. أمسكها من قدميها وجرها إلى فناء الكوخ. لم تبد أي تمنع. بقي منديل رأسها في التراب. التقطه الزوج وألقاه على وجهها لكي يقيها لفح الشمس الحارة. أغلق الباب خلفها وخرج يتعثر فوق الحفر والجلط المائية. مر بمجموعة من الأطفال فتحلقوا حوله ثم تفرقوا. وتحدثوا لبعضهم. كم من واحد منهم تمنى لو يكن هو بويدية حتى ولو كان الثمن ميتة مثل ميتته. المهم أن يثبت الانسان وجوده ويعلنه للعالم بكل الطرق. وسمع الزوج طفلين يتحدثان بصوت مرتفع، والغالب أنهما كانا يتحدثان عن طفل في مثل سنهما اعتدى عليهما.

أجاب الآخر:

– سنقتله وسندخل السجن. وعندما نخرج تكون لنا شوارب.

– وسنصبح قويين.

– مثل بويدية.

– سيخافنا الجميع.

– وسنسكر وننزع من الناس الفلوس ونعتدي على الفتيات وخصوصاً على أخت عباس لأنها سمينة وتطردنا كل يوم من باب كوخهم.

مشى الزوج يتعثر متثاقلاً. أنهكه المرض. كان يبدو بلا انفعال، كأن لم يؤثر فيه موت أو إغماء امرأة. فدماغه شبه مخدر بلا أحلام. عرج يميناً فدخل الزقاق، وواجهته الحوانيت وقد تجمع حولها الكثير من الناس، جلسوا على التراب، بعضهم يتأمل أو يجتر ذكريات البادية القديمة، وبعضهم يلعب الورق أو الضامة. توقف عند أحد الحوانيت وترك جسده يتهاوى على الأرض. قال البقال:

– لقد فعلها بويدية.

– فعلها لنفسه، تحمل مسؤوليته.

كانت نبرة صوته حيادية كأن الأمر لا يتعلق بابنه. فهو في قرارة نفسه، يشعر أن ليست هناك علاقة بينه وبين بويدية. أحياناً ينتابه الشك في أنه لم يلده. إن عنده فكرة عن الخادمات بأنهن مومسات. وبما أن أم بويدية كانت خادمة بلا شك أنها حملت به من رجل آخر. ثم هناك الاختلاف الكبير بينه وبين بويدية. واحد مسالم، هادئ، كسول، لم يتشتغل في حياته إلا لماماً. أما الآخر فقاتل وعنيف وعنيد. لكن من يدّع القوة يمت ضعيفاً.

قال البقال:

– لقد كان مسعود طيباً، ويعمل من أجل خمسة أولاد وزوجة حامل.

– يرحمه الله. لو لم يقتل بويدية لقتلني أبناء مسعود فيما بعد. وأنا لا أريد أن أذهب ضحية أحد. إني أريد أن أعيش أعواماً أخرى.

رفع رجل رأسه. كان منشغلاً بالنظر إلى الأوراق في يده. وقال:

– إن بويدية لا يموت. هل تعلمان أن الناس عندما طاردوه ظلوا يضربونه بالعصي والبالات على كتفيه وجمجمته. لكنه لم يمت. فقد ظل والدماء تسيل على وجهه يلوح بسلسلة حديدية في أوجههم، وقد أصاب منهم ثلاثة. لكن ضربة الفأس هي التي قضت عليه نهائياً. فقد تركت حفرة كبيرة في رأسه. وعلى أثرها هوى إلى الأرض وهو يردد سأقتلكم كلكم. بويدية هو الأقوى. لكنه لفظ أنفاسه.

حتى هذا الوصف لمقتل بويدية – الذي كان يعرفه والده – لم يؤثر فيه. بدا حيادياً جداً. أدخل يده في فتحة جلابيته، وأخرج السبسي والمطوي وملأه شقفاً. دخن بهدوء ومد السبسي إلى الرجل الذي يلعب الورق. دخن منه هذا الأخير وأعاده إليه.

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي اعتدي فيها على مسعود من طرف بويدية. فهو في كل شهر مضطر مثل باقي أصحاب الحوانيت إلى دفع غرامة مالية. لكن الغرامة كانت مرتفعة، بدعوى أن حانوته مليء بالسلع المتنوعة، وله زبائن كثر. عندما كان مسعود يبدي أي تبرم، فإن بويدية يخرج رأس سكينه من تحت معطفه الأسود القذر الذي لا يغيره أبداً. ولا يفوه بكلمة. كانت رأس السكين تنوب في الحديث عنه ثم يدخل رأس السكين ويتسلم المبلغ وينصرف. لكن في المرة الأخيرة، قرر مسعود أن يرى السكين لا رأسها. إلى متى سيظل يدفع هذه الغرامة؟ لكن بويدية قال:

– طيب. لا تريد أن تدفع مائة درهم؟

– لا. أنا رب عائلة. أدفع لرجال الضريبة، أدفع رشوة للمقدم. ثم لك أنت أيضاً. أنا لا أشتغل بالسوق السوداء. ثم إني لا أملك بنكاً.

– طيب. ستدفع مائة درهم.

لوح بويدية بالسكين اللامعة في الهواء. كان القتلة الثلاثة خلفه ينظرون في صمت ولا يتدخلون في الحديث. إذا تحدث بويدية ففيه الكفاية. إنهم لا يتدخلون إلا بالسلاسل والسكاكين أو اللكمات.

وقال بويدية:

– هذه السكين سوف تفصل رأسك عن جسدك. أو تلك الحديدة.

التفت إلى الثلاثة خلفه:

– أرها له حتى يعرف أننا لا نمزح.

ولمسعود:

– ستنغرز الحديدة في قنة رأسك.

قال مسعود:

– لن أدفع حتى ولو كان في ذلك حتفي. يتم أولادي إذا شئت.

– طيب. ستدفع ثلاثمائة درهم.

– لن أدفع.

ارتمى بويدية على مسعود وقبض على رقبته بقوة وجذبه إلى خارج الحانوت. حاول مسعود أن يقاوم. مد يده إلى هراوة في زاوية. وقبل أن يهوي على بويدية، سقط مسعود أرضاً وهو يتمرغ في دمه.

وقال البقال للأب:

– ليس وحده هو الذي يفعل ذلك. كلهم يتشبهون الآن بقتلة الأفلام.

– أنا لم أر فيلماً في حياتي. الآن فقط، فهمت لماذا كان يصر على مشاهدة الأفلام. هل هي التي تعلمهم؟

لا أحد يدري كيف تجرأ الناس على مطاردته وقتله، بالرغم من أنهم كانوا يخافونه. في البدء أخذ الذين طاردوه يهمهمون. ثم أصبحت الهمهمة احتجاجاً بأصوات مرتفعة. وقالت امرأة وهي ترى مسعود متمرغاً في دمه:

– والله لم يبق هناك رجال. يقتل ويمضي إلى حال سبيله والرجال ينظرون إليه.

وقالت أخرى:

– اصمتي يا أختي وإلا سمعك.

– لن يستطيع أن يؤذيني. وإذا فعل فإني أهشم رأسه بيد المهراس.

– إنه لن يعطيك الفرصة حتى تهشمي رأسه.

– الله الله. لم يبق هناك رجال.

قال أحدهم:

– معها حق. لم نعد رجالاً.

وردّ آخر:

– أنا امرأة. ابدأ أنت أيها الرجل. ابدأ قبل أن يختفي.

– ولماذا لا أبدأ؟ لماذا لا نبدأ؟

دخل إلى كوخه وخرج بهراوة غليظة الرأس. تفرق الرجال وفعلوا مثله. وبسرعة فائقة انقضوا على بويدية. ظل يقاوم، في حين فر القتلة الثلاثة. انهالوا عليه ورفسوه. كانت ضربة الفأس من الخلف قوية. لم يملك أمامها بويدية إلا أن يستسلم لضعف قواه، بالرغم من أن وعيده ظل مستمراً حتى لفظ أنفاسه. إن الشرطة نفسها تتجنب شره، إلا إذا ارتكب جريمة لا تخفى على عين أحد. جريمة تفوح رائحتها وتكون فيها إهانة للسلطة. إذ ذاك يعتقلونه ويودعونه السجن شهراً أو شهرين. والكل يخاف من أن يصبح أولاده من بعده يتامى مشردين. كم من شرطي قتل في حادث من ذلك النوع من الحوادث، فأصبحت زوجته من بعده مومساً. والكل يقول: «ذلك جزاء تهوره. لم يرد أن يأكل القوت وينتظر الموت». أما هذه المرة، فبعد مقتل بويدية، حضر رجال الشرطة بعد أن تأكدوا من الوفاة، لأنهم لا يحضرون إلا إذا كانت هناك وفاة. فالمشادات في تلك الأحياء لا تنتهي أبداً، ويلزم تجنيد كل أجهزة الشرطة لفض تلك الخصومات في حي واحد فقط.

عندما حملت سيارة الإسعاف جثتي مسعود وبويدية، تحلق كثير من الخلق حول سيارة الشرطة. وأمر الضابط أعوانه أن يفتشوا عن صاحب الفأس فجيء به بسرعة.

وقال الضابط للرجل الذي كان يرتعد:

– لا تخف. سنأخذك معنا من أجل تحقيق بسيط روتيني. حسناً فعلت عندما قتلت ذلك الأبتر المشؤوم.

ركب الرجل الجيب. وقالت زوجته وهي تنتحب:

– الله معك. أتمنى أن تعلمك هذه الحادثة كيف يجب أن تتجنب الفضول.

لكن نساء أخريات أخذن يشجعنها ويصبرنها.



المركز الصحّي

توقف الرجال الثلاثة، أمام العربة التي تحمل المريض، عربة يجرها حمار، غير مغطاة. ووراء الرجال الثلاثة امرأتان وطفل صغير، اختلطت دموعهم مع ماء المطر المندلق من السماء في غير عنف. المرأتان تجهشان والطفل الصغير يرتعد من البرد، والحمار هو الآخر يحاول أن ينفض الماء عن أذنيه المرتخيتين.

قال الرجل الأول:

– نحمله على أكتافنا.

– كيف ذلك؟ إنه يتألم.

قال الثالث:

– نحاول أن نجر الحمار وسط المستنقع.

قال الأول:

– أعرف هذا الحمار البليد. لا يمكنه أن يجتاز المستنقع حتى ولو قتلناه بالضرب. فكر الرجال الثلاثة في صمت قليلاً.

وبدا لهم المركز الصحي بعيداً وغاصاً في الوحل والماء الكدر. أما بابه فمغلق. كانت هناك نافذة واحدة مفتوحة قليلاً يمر أمامها رأس بشري من دون شك، إنه المركز الصحي الوحيد في المنطقة لحوالي عشرة آلاف من سكان القرى والدواوير. لذلك فالوصول إليه يعتبر رحلة أبدية لا نهاية لها.

قال الرجل الأول:

– حاولا أن تساعداني. افرجا ساقيه وأنا سأضعه على ظهري.

أخذت الأمطار تتهاطل بقوة هذه المرة، والريح تلوي أعناق بعض الأشجار الطرية القصيرة حتى لتكاد تتكسر. وكان يسمع للمريض أنين واه ضعيف تحت قطعة المشمع التي غطوه بها. وعندما يسمع له أنين، يمعن الطفل في ذرف الدموع، ويتشبث بقوة وعنف بثوب أمه القذر.

قال الطفل:

– هل سيموت يا أمي؟

لكن الأم لم تجبه. بل مدت يدها إلى المشمع، وجذبت بعض أطرافه لتسويه فوق جسد المريض، وعندما فعلت ذلك اندلقت بعض المياه التي تجمعت في بعض ثنايا قطعة المشمع.

أخذ الرجل الأول يستعيد نفساً عميقاً كان قد فقده. وأعطى ظهره للعربة. وقام الاثنان الآخران بنقل المريض إلى ظهر الرجل. شعر هذا الأخير بالثقل فتشجع وصمد أكثر وانحبست أنفاسه مرة أخرى. أما المرأتان فقد اهتمتا بتسوية المشمع على رأس المريض.

أخذت المجموعة تجتاز المستنقع وقد رفعت أثوابها حتى ما فوق الركبتين بكثير. أما المرأتان فلم ترفعا ثوبهما أكثر من حدود الركبتين، وسمحتا لثيابهما، بالابتلال. لأنهما كلما حاولتا أن ترفعا الثوب أكثر، ظهرت أفخاذهما الغليظة المشعرة. وكاد جسد المريض أن ينزلق عن ظهر الرجل، فتداركته الأيدي وأعادت توازنه.

قال الرجل الثاني:

– أتمنى أن يكون الممرضون حاضرين.

تساءل الثاني:

– لا أدري كيف يجتازون هذا المستنقع للوصول إلى المركز.

– إنهم لا يجتازون المستنقع، بل يسكنون في المركز.

وازدادت الأمطار فلم ينتبه أحد لذلك، كان المريض وحده هو الذي يستجيب لهذه الظاهرة الطبيعية بأنات متوالية ورتيبة.

وعندما اقتربوا من المركز الصحي، سمعوا أغنية منبعثة من مذياع فشعروا بالأمل. الممرضون موجودون. وقالت امرأة:

– سوف يعالجونه وسوف يشفى.

وقال الرجل الثاني وهو يفتش في جيب سرواله:

– يجب أن ندفع لهم رشوة حتى يعتنوا به أكثر.

– صحيح.

ثم صعدوا بعض درجات قليلة، وتجمعوا فوق مصطبة عالية. وأحس الرجل الذي يحمل المريض باعياء. أدار ظهره جهة حائط المركز، ثم حاول أن ينزل برفق وأناة. لكن قواه لم تسعفه فسقط جسد المريض مثل كيس على الأرض الصلبة. أصدر أنيناً مرتفعاً وصمت. فانحنت عليه المرأتان وحاولتا أن تسنداه على الجدار.

أخذ الرجل الثاني يطرق الباب الحديدي البارد بقبضة يده. ولم يأته الجواب إلا بعد لحظات.

أطلت ممرضة قصيرة القامة برأسها، ثم خرجت لتلقي نظرة على المريض:

– ماذا به؟

– لا ندري.

أجاب الرجل الثالث:

– إنه يشكو من الوجع ومن الحمى.

وقالت الممرضة القصيرة القامة:

– احملوه واتبعوني. ثم ان الطبيب لا يأتي إلا يوم الخميس.

حمل جسد المريض بالطريقة التي حمل بها في المرة الأولى. وعندما أصبحوا داخل حجرة ذات مقاعد طويلة حاولوا أن يجلسوه لكنه لم يقو على ذلك. غابت عنهم الممرضة داخل حجرة أخرى. ولم يكن في المصحة سوى هي وممرض واحد فقط. وعندما رآها المريض قال وهو ممدد في سريره:

– ميت آخر؟!

– ربما.

– متى ننهي طريقة العيش هذه؟

– عندما نتزوج.

– أنت تحلمين كثيراً. لقد نفونا هنا، في هذه المنطقة. أنا أحلم بالعودة إلى مدينتي.

– وإذ ذاك سنتزوج.

– أنت لا تفكرين سوى في الزواج.

– وفي أي شيء يمكن لامرأة مثلي أن تفكر.

– اذهبي وأعطي لذلك الكلب أقراصاً قبل أن يموت.

لم يكن ينظر إليها. بل كان يدخن في تأمل، وينظر إلى الأمطار تتساقط وتصدم زجاج النافذة. خرجت الممرضة ونظرت في وجه المريض، جست نبضه ووضعت يدها على جبهته، لم تخمن مرضه. وافتعلت بعض الجدية والعناية. عادت إلى غرفة خلفية وجلبت بعض أدوات الحقن. ثم قالت:

– لا تخافوا. سيشفى.

لفت المجموعة المريض في قطعة المشمع. وحملوه إلى الخارج. كان الحمار يبدو من بعيد وهو يهز بعض قوائمه ويحرك أذنيه ورأسه. رفع الرجال والنساء ثيابهم إلى ما فوق الركبتين، وأخذوا يخوضون في الماء العكر، أما الممرضة فقد التحقت بالمرض، وتزاحمت معه في الفراش:

– إني أملك بعض الحلي. سأبيعها وسنتزوج.

– هل مللت الإجهاض؟

– إلى متى سنعيش هكذا؟

– هات العشرة دراهم التي أخذتها منهم.

– لم أخذ سوى خمسة. أقسم لك.

وأخرجت ورقة من فئة الخمسة دراهم وقدمتها له. ثم سمعا صرخة قوية تلتها صرخات أخرى. قامت الممرضة وأطلت من النافذة فرأت امرأة تلطم وجهها وتلطشه بالماء تحت المطر. ورأت رجلين يبدوان كما لو فقدا وعيهما وهما يتمرغان في ماء المستنقع، عادت مرتعبة إلى وسط الغرفة.

– ناري! يمكن أنه قد مات.

قام الممرض من مكانه وذهب إلى النافذة. وأخذ يراقب المشهد تحت المطر. أحس بشعور غريب. وأخذ يجوب الغرفة بخطوات بطيئة وعيناه تحدقان مرة في الأرض، ومرة في عيني الممرضة الزائغتين. لكنه لم يكن يستطيع الكلام.